عنترة بن شدّاد

٤



دار المعارف بمصر

عنترة بن شدّاد

٤

تأليف

حسن جوهر — محمد أحمد برانق

أمين أحمد العطار

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

١

جاء عنترة عبد أسود ، وطلب إليه أن يغيث بشارة ، ويخلصه من يد الربيع فى بنى فزارة ، وسأله حاجة فى نفسه ، وهى أن يساعده فى الجمع بينه وبين من يحبها ويهواها .

ففرح عنترة ، إذ عرف مكان بشارة ، وسأله :

وكيف وصل بشارة إليه فى دار غربته ؟

فقال العبد :

كان الربيع بعد رحيل قيس بن زهير من عنده ، قد جمع إخوته ليشاورهم فى أمره ، فأشاروا عليه أن يذهب إلى النعمان من فوره ، ويثيره على زهير وقومه ، حتى يخضد شوكتهم ، ويفل حد قوتهم ، فقال الربيع :

ولن يتم ذلك قبل هلاك بشارة ، أو أسره ، حتى يكون اختفاؤه حجة لنا على خصمائنا .

فقالوا :

نعم ما رأيت !

دعا الربيع عبداً له يسمى مسروقاً ، وكان فارساً مهيب الجناب ، وقال له :

إن قضيت حاجة فى نفسى ، حررت رقبتك ، وزوجتك من جارية ذات جمال ومال ، وأعطيتك من المال ما يجعلك فى أوسع نعمة ، وأبسط ثراء .

فقال مسروق :

وما حاجتك يا مولاى؟

فقال الربيع :

أن تأخذ من شئت من العبيد وتذهب إلى ديار بنى عبس ، فتأتينى ببشارة موثقاً مأسوراً ، أو تقتله وتأتينى برأسه .

فقال مسروق : سأقوم بما أمر مولاى امتثالاً وطاعة ، وعما قليل لتجدن الخبر اليقين .

وكان مسروق يحسد عنترة ، على ما أوتى من غنى وقوة ، فأصاب قول الربيع هوى فى نفسه ، وجمع أربعة عبيد عرفهم بالبأس الشديد ، والمكر والدهاء ، وأطلعهم على ما كلفه الربيع إياه ثم قال : ولهذا اخترتكم ، لينفذ الأمر على أيديكم .

وجعل مسروق العبيد يكمنون فى وادى النوق ، بالقرب من بنى عبس ، وسار وحده ، فوجد زهيرا وجماعته وأضيافه فى غدير ذات الأرصاد ، ووجد بشارة ملازماً لعنترة ، الذى أحبه وقربه منه ، وأراه من وسائل الإعزاز ما جعل بشارة يعتقد أنه من عنترة كأخيه شيبوب ؛ ووجد القوم منكبين على الشراب ، وكان بشارة قد أفرط ، فأسلم نفسه ، كما أسلم القوم

أنفسهم ، إلى نوم عميق ؛ ولما انقضى الليل أو كاد أحس بشارة حاجةً تدفعه إلى قضائها ، فغادر القوم إلى الصحراء ، وأبعد قليلاً ليقضى حاجته ، وبعد أن قضاها غلبه رأسه ، وثقل عليه ، فجلس يستريح ، ولكن النوم أعجله ، فنام فى مكانه .

كل أولئك ومسروق على مرأى من بشارة ، يرتقب فرصة تمكنه من سره ، ولما غط فى نومه أقبل مسروق ووضعه فى كيس وحمله ، وسار به إلى الكامنين خلف الآكام من رفاقه ، وقال لهم :

هذا بشارة بين أيدينا ، فإما قتلناه ، وإما حملناه إلى ديارنا ، وسلمناه إلى الربيع مولانا .

فأجمعوا أمرهم على أن يسيروا به حيًّا ، وهناك يفعل الربيع به ما يشاء .

° ° °

حمل العبيد بشارة ، وما كادوا يسيرون به بعيداً حتى أفاق ووجد نفسه فى أيدى مسروق ومن معه ، فلم يستطع أن يتكلم ، وسار معهم حتى سلموه للربيع .

وما كاد الربيع يراه بين يديه حتى كاد يطير فرحاً وغبطة ، ثم حفر مخبأ فى الأرض ، وألقى بشارة فيه ، وجعل أمَة من إمائه ، تدعى ثمامة تتعهده بقليل من الزاد والشراب ، حتى يعذبه ويشفى غليله ، ثم يقدمه إلى مولاه مفرج بن هلال ؛ وكانت ثمامة وهى تختلف إليه فرحة بذلك ،

فقد أحبته لأول نظرة، وزاد غرامها به بمرور الأيام ، ورغبت ذات صباح أن تسأله عن حاله، وكان الربيع قد أبعد فى الصحراء كعادته ، طامعةً أن تنجيه لنفسها،وتستمتع بعشرتها معه ، فقالت له :

من أنت أيها الفارس؟ ! وما أوقعك فى هذا الضيق والبؤس ؟ !

فقال بشارة :

وأين أنا الآن يا بنت الكرام ؟!

فقالت ثمامة :

كأنك كنت فى غيبة عن الحياة ، إذ جىء بك إلى هذا المكان .

فقال بشارة :

لقد كنت فى غيبوبة ثم أفقت فرأيت ناساً لا أعرفهم ، ثم وجدتنى بين يدى الربيع الذى قذف بى فى ذلك المكان .

فقالت ثمامة :

أجل إنك الآن فى قبضة الربيع بن زياد، الذى عرف بمكره ودهائه بين العباد .

فقال بشارة : فى حزن وأسف لقد حل بى العطب الذى لا مرد له .

أنا بشارة بن منيع ، عبد مفرج بن هلال ، الذى خلص عبلة وأنجاها ؛ وقص عليها قصته.

فقالت ثمامة :

وما كان صنيعك هذا إلا مروءة ومعروفاً، ولئن ضاع المعروف بين الناس فلن يضيع عند الله جزاؤه؛ وما رأيك فيمن ينجيك كما نجيت عبلة؟

فقال بشارة: لئن كان ذلك على يديك ، أصبحت أسير معروفك مدى الحياة .

فأخذت عليه المواثيق والأيمان ، أن ينزلها فى سويداء قلبه كما أنزلته فى سويداء قلبها .

فقال بشارة:

وإنى بذلك لسعيد، ما تردد فى الجو للطائر تغريد .

ثم استأذنته أن تقوم لتبدأ عملها لنجاته ، وذهبت إلى أخ لها يدعى « جمعة »، وكان هذا مغرماً بجارية فى بنى عبس، تسمى « وردة بنت لمعة» فرّق الدهر بينهما، ويود بجدع الأنف أن يراها ، قبل أن يحل أجله ، وبعد جلسة قصيرة ، كانا يتحدثان فيها ، حتى جاء ذكر وردة ، وبدت عليه أمارات الحسرة ربتت عليه بيدها وقالت :

إن همك يملأ صدرى ، وما زلت مشغولة بك يا ابن أمى وأبى ، وقد أتيحت لى فرصة تمكنك من الاجتماع بوردة، ولكنى فى حاجة إلى معونتك فهل أجد عندك المعونة التى تجمعك بوردة حبيبتك ؟

فقال جمعة : ولو كلفتنى الشطط وركوب الخطر .

فقصت عليه قصة عنترة وعبلة وبشارة بن منيع ، وقالت :

وسبيلنا فى تحقيق مأربنا أن تذهب إلى ديار بنى عبس وتلتقى بعنترة فى سر وخفية، وتطلب إليه أن يسعف بشارة، وينقذه من سجنه، على أن يجمعك بوردة بنت لمعة، التى هى فى حيه.

° ° °

خرج جمعة من فوره إلى بنى عبس، واحتال على لقاء عنترة حتى لقيه واختلى به، وقص عليه قصة بشارة.

وما أخبر جمعة عنترة نبأ بشارة، حتى فرح واستبشر، وذهب إلى أبيه وأهله، وأنبأهم نبأ بشارة، فاتفقوا على أن يذهبوا جميعاً صباح الغد إلى زهير، ويفضوا إليه بكل ما علموا.

وفى الغد جمعهم مجلس زهير وقال مالك بن قراد:

لقد ظهر بشارة بن منيع، وهو فى حاجة إلى معونتك العاجلة، حتى نكشف عنه ما ألم به من العذاب المريع.

فقال زهير:

وأين بشارة الآن؟

فقام عنترة وقص قصته، وقال:

إن لم نبادر بإسعافه، ونعجل بخلاصه، حل به الموت العاجل، وبقى أمر الربيع خفياً، وظل العرب مخدوعين بمكره. والرأى أن ترسل معى إلى بنى فزارة من تثق بهم، حتى يروا رأى العين ما يكون من أمر خلاص

بشارة، ليشهدوا بين العرب بما علموا وشاهدوا.

فقال شاس ومالك ابنا زهير:

نسير مع عنترة إلى بنى فزارة، لنعلم ما يجرى، ونفصل فى هذه القضية حتى نستأصل داء الفتنة، ونطفئ نارها، قبل أن يعظم شررها، ويعم خطرها، ويحسن أن يكون الشيخ بدر بن عمرو سيد بنى فزارة حاضراً.

فقال زهير:

لقد أذنت لكم، فافعلوا ما تريدون، وعلينا بعد ذلك أن نقتص من الظالم، ونضرب على يديه، حتى يستقر الأمر ويطمئن الناس.

سار أبناء الملك، ومن حولهم خمسة فرسان أشداء، وعنترة ومعه عروة ابن الورد فى عشرة أبطال أقوياء، وخلف بقية رجاله فى وادى اليعمورية كامنين، ليكونوا مدداً وعوناً عند الحاجة، نزولاً على رأى عنترة، الذى خشى حذيفة بن بدر، أن يهجم عليهم فى بنى فزارة، ويشفى بالفتك بهم صدره الذى يتميز غيظاً.

وما كاد بنو فزارة يرون قدومهم، حتى ركب إلى لقائهم جماعة منهم، وكان من بينهم الربيع بن زياد وأخوه عمارة، وحذيفة بن بدر المعروف بمكره ودهائه.

التقت الفئتان، وتبادل الفريقان التحية والسلام؛ ثم قال الربيع لعنترة:

لعلك قادم تستغفر وتعتذر.

فقال عنترة :

إنما يستغفر الآثم النادم، ويعتذر الظالم ، الذى دنس شرفه بسبى بنات هن من لحمه ودمه .

فقال الربيع فى هدوء الماكر :

صدقت يا عنترة، ولو أنصفتنى منك لرددت علىّ مالى، الذى منه العمامة والجبة والسكين .

فقال عنترة :

ألم تعط بشارة بن منيع العمامة والجبة والسكين ، ليلة أن كلفته قتل عبلة ؟

فقال الربيع :

لقد قربت إلينا النهاية ، وأوضحت سبيل الهداية، فأحضر لنا بشارة ليشهد أمام هذا الجمع بما علم، ويفصل بينى وبينك .

فنظر عنترة إلى الجمع وقال:

لقد طلب منى بشارة، وسترون الآن أنى سأحضره من سجنه الذى حبسه فيه الربيع.

وقام وامتطى جواده، وذهب هو وأخوه شيبوب إلى محبس بشارة ، والقوم شهود، تبدو على وجوههم الدهشة ، وهناك أمر أخاه أن يزيل الأمتعة المكدسة التى فوق السرداب الذى صنعه الربيع ،وحبس فيه بشارة، ففعل ما أمر به ، ونادى عنترة بشارة ، فخف إليه مسرعاً ، وأحضره

عنترة إلى الجماعة .

أما الربيع فقد أحس مرارة الموقف، وخزى الخاتمة ، ولكنه لا يزال يتمادى فى مكره ودهائه، فالتفت إلى حذيفة وقال :

إن هؤلاء القوم ما أتوا إلا ليقاتلونا، ونحن نازلون فى دياركم ، ومعتصمون بحمايتكم ، ومن العار أن نهان ونحن لائذون بكم، ومقيمون فى رحابكم ، وهذا أوان نصرة الجار ، وحماية اللائذ المستنصر .

وكان الربيع من قبل قد ملأ صدر حذيفة غيظاً وكراهية لبنى عبس وعنترة ، ولا ينفك يحدثه فى أمرهم، بما يزيده غضباً وحنقاً عليهم ، حتى قال حذيفة للربيع فى إحدى جلساته :

إن أردت هلاكهم وهلاك عنترة، فأضرم نار الخلاف والحرب بينى وبينهم ، وبعد ذلك لا ترى لهم قائمة .

وما زال الربيع يوسوس فى صدر حذيفة ، ويغريه بقتال عنترة ومن معه ، حتى ثار غضبه، ونادى فى قومه : أن هبوا لقتال عنترة ومن معه ؛

ولم يكن هذا النداء بمخيف عنترة ، ولا بمغير له موقفاً ، فقد أرسل شيبوباً وبشارة ، إلى فئة عروة الكامنة فى وادى اليعمورية ، وتصدى هو ومن معه لقتال حذيفة ورجاله ، حتى يجيئه المدد والمعونة ، فمزقهم شر ممزق ، وقتل جواد حذيفة ، فأكبه على الأرض ، وكاد يذيقه مرارة الموت ولكن أعوانه اختطفوه ، وحملوه إليهم فولى هارباً، وما زال عنترة ورجاله

يحصدونهم حصداً ، حتى أسروا الربيع مصاباً ، وعمارة موثقاً ، وجاء بدر ابن عمرو سيد بنى فزارة فنادى فيهم بالسلام ، وقال لعنترة :

لقد علمنا أنك مظلوم ، وأن الربيع غلا فى جوره واعتدائه ، وقد قتلت من قومنا ما قتلت ، فلك عذرك ، وعلينا تبعة كذب الربيع ومشايعة حذيفة ، فاذهب إلى ديارك فى سلامة ، وكفى ما حل بنا من الندامة .

فاطمأن عنترة لقول هذا الشيخ الكبير ، وكف عن القتال ، ورجع هو وجماعته فائزين ، ومعهم فى الأسر الربيع وأخوه عمارة موثقين .

٢

كان مالك وأخوه شاس ، قد أسرعوا إلى أبيهم لينجد عنترة ، خشية أن تتكاثر عليه بنو فزارة ، فيذيقوه كأس الحمام ، وأعلموه أمر بشارة ، وما فعله الربيع ، من تضليل العرب ، والعمل فى الخفاء ليكيد لعنترة ومن شايعه ، فخف الملك إليه فى جند حاشد ، وخلف الأحياء فى هرج ومرج يتدافعهم اليأس والرجاء ، فهذا يئس من نجاة عنترة ، فألح عليه البكاء ، وهذا يرجو له الفوز ، فيدعو له أن يعود سالماً — وإذا بعنترة يطلع عليهم فى طريقهم فائزاً غانماً ، فاستبشر زهير وجنده ، وكشف له عنترة النقاب

عن كيد الربيع وغدره ، ورجعوا جميعهم إلى ديارهم فرحين .

ولما أشرفوا على الأحياء سأل زهير عن الربيع وأخيه عمارة ، فقال عنترة :

أخذهما أبى وعمى وأسرعا بهما إلى الأحياء ، ليكونا رهينة عند عمى ، حتى يرد الربيع إليه مال ابنته الذى سلبه .

فظهرت على زهير أمارات الغضب وقال :

كيف تبرمون أمراً من دونى؟! وما قيمتى بينكم إذا كنتم تتحكمون فيما غنمتم وتتصرفون فى الأمر حسب أهوائكم ؟ ! !

إنكم بذلك تفتحون باباً من الفتن لا يقدر أحد على إغلاقه ، وكان أجدر بكم أن ترجئوا أمرهما إلى حضورنا ، لنقضى فيهما بما نشاء ونرى .

وصل مالك وشداد وبشارة بن منيع إلى الأحياء ، فجعلوا يطوفون فيها بالربيع وعمارة موثقين ، وهم يضربونهما بالسياط ، ويغيظونهما بقاسى القول : هذا جزاء الغادر الخائن ، الذى لا يرعى للبنات حرمة .

ومر عمارة ببيت مالك بن قراد ، فى أثناء طوافه المقيت ، فنظر عبلة واقفة أمام بيتها وهى تقول :

هذا قليل فيكم يا بنى زياد ، فما ترك الربيع سبيلاً للكيد ببنى قراد إلا سلكه ، تبت يداك أيها اللئيم الفاجر ، فقد نهبت مالى ، وسعيت فى قتلى وتعذيبى ، ثم جبنت وأنكرت هذا ، وقد أخذك الله بما فعلت ، فلا تحزن لما حل بك من هذا الخزى والهوان ، فما لقيت إلا جزاءك .

رآها عمارة وسمع قولها هذا فما عزت عليه نفسه، ولكنه جبن أمام حبها وشغفه بها فقال: تفضلى علىّ يا عبلة بكلمة منك تحيينى ، فالتفت إليه أخوه الربيع غاضباً ساخراً وقال :

اسكت أيها النذل اللئيم ، فما حل بنا هذا الهوان إلا بسببك وعشقك هذه الفتاة، ولا تزال تهذى بها وبحبها حتى تهلك وتهلكنا معك .

° ° °

كان قيس بن زهير قد تخلف وقعد فى الأحياء ولم يخرج مع أبيه وإخوته لنجدة عنترة، ورأى ما حل بصهره الربيع وأخيه عمارة ، فما أطاق صبراً على هذه الحال، وجرد سيفه وثار بجماعته ومن يؤيده ، وضرب بشارة بن منيع بسيفه ضربة كادت تهلكه ، وهم بالتنكيل بشداد ومالك ومن ذهب مذهبهما، ولكنهم فروا من وجهه ، ضنًّا بالحسام أن يشهروه فى وجه قيس بن زهير ملكهم، فأقبل هو على الربيع وعمارة وحل وثاقهما وأمرهما أن يذهبا إلى بيته، ينتظران عودته بعد أن يتعقب بنى قراد ويؤدبهم.

وبينما هو جاد فى طلب بنى قراد حضر أبوه زهير، فأسرع إليه الناس وأخبروه بما فعل ابنه قيس، فالتفت زهير إليه قائلاً :

لقد عهدناك يا قيس عاقلاً هادئاً، حليماً حازماً، فما عدا مما بدا ؟ !

فقال قيس :

وكيف تنشدون العقل فى رجل يرى بعينى رأسه سادات قومه كرة فى

أيدى العبيد ، يتلقفها عبد فى إثر عبد ؛ وقص عليه ما فعله مالك وشداد بالربيع وعمارة ، ثم قال:

ولن أرتضى بعد ذلك المقام فى الديار ، إلا إذا غسلت الإهانة ، ومحوت الخزى والعار ، بالفتك ببنى قراد، وقتل عنترة بن شداد .

فأدرك زهير أن الأمر تفاقم خطره ، وأنه لا علاج لهذا الموقف إلا بالتفرقة بين بنى زياد وبنى قراد ؛ فالتفت إلى عنترة قائلا :

لقد وجب الآن أن ترحل أنت وقومك من الديار، إلى حيث تكونون فى منأى من الربيع وعشيرته، ولك بعد هذا أن تفعل ما تشاء فإنهم جماعة لا يكفون عن إيذائك وأنت رجل تعاف الضيم وتأبى أن تقيم على الأذى ،

وقال قيس له :

لماذا لم تطلب مال عبلة من القوم الذين كانت عندهم ؟

فقال عنترة :

لا تحكم هواك فى غيرك ، وسأرحل بقومى من هذا الحين ، وسأعرف كيف أرد مال عبلة المغتصب إليها .

وانفصل هو وقومه ، وضربوا خيامهم فى البيداء للإقامة والمعيشة ، حتى يحضر إليهم بقية الأهل والعشيرة ، من رجال ونساء، ثم نزحوا عن الأحياء بعد أن أسكن زهير بحسن سياسته عاصفة من الشر لو تركها وشأنها لأفنت بنى زياد .

وذلك أن عمارة لا يزال يتيه فى ضلال من حبه ؛ فقد غرته غضبة قيس لبنى زياد، ونهوضه للدفاع عنهم ، كما غرته مسالمة الملك زهير ، وطرده عنترة وأهله ؛ غره كل أولئك فظن أنه يستطيع حينئذ أن يذهب إلى دار عبلة ليلقاها قبل رحيلها ، وتبعه الربيع أخوه ليسترد الأموال التى أخذها منه عنترة ، وشايعهما أتباع قيس واقتحموا مضارب بنى قراد فعثروا على أموال الربيع فأمر أتباعه بحملها إلى مضاربه . وبلغ ذلك عنترة فأسرع إلى قومه من بنى قراد، عازماً على أن يقطع دابر بنى زياد .

وصل نبأ هذه الحالة إلى الملك زهير ، فأمر أبناءه أن يتعاونوا على حماية قومهم من حرب طاحنة قد لا تبقى منهم باقية ، فرد قيس بنى زياد ، ورد شاس ومالك عنترة وبنى قراد، وانتهى الخلاف برحيل عنترة وبنى قراد .

وبعد أن كمل عقدهم ، ونفر من كان فى الأحياء من بنى عبس، وعروة وعشيرته معهم ، إلى مقام عنترة ومستقره فى البيداء ، أشار عليهم أن يرحلوا إلى أرض العراق، فصدعوا برأيه ، وتحرك جمعهم بالرحيل ، ولما وصلوا الى ركايا بنى مالك ، أمرهم بالنزول وانتظاره حتى يعود، وأخذ معه عروة فى خمسين فارساً، وقصدوا بنى فزارة ، فأغاروا عليهم ، وأخذوا منهم أموال الربيع ، لقاء ما أخذه من بيوت بنى قراد ، ورجع إلى قومه فى منزلهم ومعه غنائم كثيرة كانت للربيع فى بنى فزارة ، ففرح بها قومه ، وبسلامة عودته ، ثم أشار عليه شيبوب أن يتخذ جبال الردم ووادى الرمال موطناً ،

حتى يكون لهم منها حصن حصين ، ولا يستطيع عدو أن ينال منهم فى مكانهم هذا نيلاً ، فإذا ما نصب عنترة نفسه لعداوة من يشاء ، كان آمناً على أمواله وأهله وعشيرته ، فسر عنترة لهذا وجدوا فى المسير إليها ، حتى نزلوا فيها ، وحطوا رحالهم وضربوا خيامهم عندها .

ونهض عنترة بعد استقرار قومه فى مقرهم الجديد بجبال الردم لغزو بنى شيبان ليثأر منهم ، فنفر هو وعروة فى فرسان اصطفاهم لتلك الغزوة العنيفة ، التى أرادها لسحق أعدائه ، وتخريب ديارهم ، وتمزيق شملهم ، والاستيلاء على أموالهم . ولنتركه هنا سائراً فى جيشه ، لنعود إلى مفرج بن هلال ونعرف مصيره .

٣

رجع مفرج من بلاد كسرى والنعمان ، ومعه الهدايا الثمينة ، والمنح الفاخرة ، وخرج ابن عمه مالك بن حسان فى جمع حاشد لاستقباله ، فالتقوا به فى مكان بعيد عن الأحياء ، واستقبلوه بما يليق به من مظاهر الغبطة ، وتفقد مفرج عبده بشارة بن منيع فى المستقبلين فقال :

ما لى لا أجد بشارة بينكم ؟

فقص عليه مالك قصته ، وأمر الكتاب الذى زوّره ، والمال الذى حمله

معه ، وقال :

إنه الآن فى بنى عبس ، ينعم بطيب العيش ، فى كنف عنترة ورعايته ، مع رابعة التى يحبها ، وقد أخذ معه عبلة إلى أهلها .

فقال مفرج :

ولكن عبلة قتلت وكانت تراباً ؟ ! !

فقال سنان بن عبد العزى من فرسان شيبان البارزين :

لقد كذب عليك بشارة وجاءك بدم كذب ، والأمر إليك الآن ، فمرنا بما تريد .

فقال مفرج :

لقد علمت أن النعمان فى طريقه إلى مصاهرة زهير ، لأنه يرغب فى زواجه بابنته المتجردة ، وقد ألح عليه حبه لها ، حتى أصبح شديد الحرص على أن يتزوجها ، وأرى أن أعود الآن إليه ، وأقفه على ما فعله عنترة بنا ، معتمداً على زهير ورجاله وقوته ، فإن تمت المصاهرة ، كان للنعمان يد فى رد الأموال ، دون أن نسفك دماً ، وإن تأبى زهير عليه ، ولم يزوجه ابنته ، كان لنا من غضب النعمان ، كبير عون على كبتهم وخذلانهم وإذلالهم ، وأن نغنم مع أموالنا أموالهم .

فقال سنان :

الأمر فى يدك ، ونحن طوع إشارتك .

فقال مفرج :

وأرى أن أرحل إلى النعمان بعد الراحة فى ديارنا يومين أو ثلاثة .

وجدوا فى المسير حتى استقروا فى أحيائهم .

ولما ذهب مفرج إلى النعمان ، ورأى النعمان أمارات الكآبة على وجهه بادية ، سأله عن حاله ، فقص عليه ما فعله عبده بشارة فى غيبته عنده ، وما اجترحته يداه من زور وبهتان وحمل لما فى خزائنه من أموال فقال النعمان :

ألم تـُخبرنى أنت والربيعُ أن عبلة قتلت وتوارت جثتها بالكثبان .

فقال مفرج :

ذلك ما صدقناه من بشارة ، إذ جاءنا بدم كذب على ثيابه ، ولم نكن نعلم ما انطوت عليه نفسه ، من الكذب والخيانة ، وكذلك فعل بنا من أجل رابعة التى يحبها .

فقال النعمان : لاتكثر من الحزن على أموالك ، فهى مردودة إليك وسأسوق إليك بشارة تقضى فيه بما تشاء ، ولكن أنظرنى حتى يرجع إلىّ نجاب رسولى ، بما يجيبنى زهير به ، فإنى مرسل إليه بكتاب ، أطلب إليه فيه يد ابنته المتجردة ، وسأقضى فى أمره على ضوء من إجابته .

وقد كتب النعمان إلى زهير :

« اعلم يا زهير أن صدق الرأى يُعز صاحبه ويرفعه ، وصواب التدبير

قوام الملك وسناده ، وما أهلك من قبلنا إلا وضع الحق فى غير أهله ، والباطل فيمن لايستحقه ،وقد بلغنى أنك أعززت العبد عنترة، ورفعته على سادات قومه، ودعوته ابن العمومة ، فطغى بحولك على العباد ، واستبد بالأحرار والأسياد ، فنهب أموالهم ، وأعز لديه عبيدهم ، وخير لك أن تأمره برد أموال مفرج بن هلال إليه، وتضع بشارة بن منيع بين يديه ، وأن تقترح علينا ما تشاء مهراً لابنتك من مال وجواهر ، واحذر أن يغرك الملك ، فيصرفك عن قبول ما أشرت وبينت ، وقد أعذر من أنذر » .

فكتب زهير إليه :

« أما ما ذكرت من أمر سياسة الملك فنحن أعلم بوجوه تصريفه، على أساس من صواب الرأى، ونفاذ البصيرة ، وسداد الحكمة ؛ وأما عنترة فقد قضينا عليه بمغادرة الديار، وقد سمعت أنه غادرها إلى أرض العراق ، وهو الآن فى متناول يدك ، فاقض فيه ما أنت قاض . وأما رغبتك فى زواج ابنتى ، فلست راضياً عن اغترابها ، ووضعها فى يد من يحتكم فيها ، ويتطاول عليها » .

وناول زهير نجابا رسول النعمان كتابه ، وأمره أن يذهب به إليه .

وجاء نجاب بكتاب زهير هذا إلى النعمان ، فلما فضه وقرأه اغتاظ غيظاً شديداً وأرسل فى طلب يزيد أخيه ، وكان يلقب بالأسود؛ فناوله كتاب زهير ، فقرأه ، ثم نظر إلى النعمان، فوجد الغيظ فى عينيه، فقال :

لقد أطمع فيك العرب نكوصك عن قتالهم ، وإغماد سيفك فى وجوههم ، ولو أنك عكرت عليهم صفوحياتهم ، بالإغارة عليهم من حين إلى حين ، لذلت لك أعناقهم، وما استطاعوا أن يعصوا لك أمراً ، ولست الآن فى حاجة إلى أن تستجدى من زهير ابنته ، فابعث جنودك إليه ، يأتوك به وبابنته وعشيرته أسرى، تقضى فيهم ما تريد .

فقال النعمان :

ولتكن وكيلا عنى فى تنفيذ ما رأيت ، وسأشغل نفسى بالبحث عن عنترة .

فقال الأسود :

سمعاً وطاعة .

ثم أذن النعمان لمفرج أن يعود إلى دياره .

٤

ما زال عنترة سائراً ، يضرب فى سهل الأرض وصعبها ، حتى شارف ديار بنى شيبان ، فأوفد أخاه شيبوباً يرتاد المنافذ ، ويأتيه بصورة صادقة عن حال الأعداء ؛ ولما رجع شيبوب إلى أخيه ، أشار عليه أن يعجل

بالإغارة، فإن القوم فى سبات عميق من السكر ، إذ شربوا كثيراً من خمر عراقية، أتى بها مفرج ، ووزعها على رجالات الأحياء وفرسانهم، فقسم عنترة جيشه إلى ثلاث فرق ، وجعل كل فرقة تغير على الأحياء من ناحية، فى وقت واحد وبعنف وقوة، فكانت حملة دامية ، أزعجت الآمن ، وأفزعت الراقد، وأذن مؤذن الموت فيهم من كل جانب، فلا يدرى أحدهم أهو فى سكرة الخمر، أم فى سكرة الموت ؛ وانتهت المعركة بين عشية وضحاها، وغنم عنترة أموالهم ، وسبى نساءهم، وسار بما غنم من أموال كثيرة إلى حيث ترك قومه فى جبل الردم ،ولكن عكر عليهم صفو سيرهم، جيش لجب، جيء به ، للثأر من عنترة ، على رأسه ظالم بن الحارث من بنى مرة .

وكان الربيع قد تحامل بإلحاحه على حذيفة بن بدر، وجعل يقول:

كيف نكون بجواركم، وتسكتون عنا ، تأكلنا ذئاب العرب وعبيدها، وأنتم لا تحركون ساكناً، ولا تخشون العار والفضيحة ؟ ! ! ! وأنت بين الملوك شمس فى وضوحك ، وجبل فى ثباتك ، ونار حامية فى غضبك وانتقامك .

فقال حذيفة :

ومن قال لك إنى سأغفل أمر عنترة ، وأصفح عنه وعن جماعته ؟ ! سترى أنه باعتدائه علينا قد قضى على نفسه ، وأباد أهله وقومه .

وعبأ جيشاً على رأسه أخ له يدعى حمل بن بدر ، وأمرهم أن يسيروا إلى عنترة ومن معه فى جبال الردم لقتالهم ، ورد ما أخذوه من أموال . وكان بدر أبوهما شيخاً مجرباً، ويرى من الحمق والسفه أن يتعرضوا لعنترة، ويدخلوا أنفسهم فيما لا يعنيهم من أمور الناس؛ ولكن حذيفة لم يستمع لرأى أبيه، ورأى من الخزى والصغار أن يسكت عن عنترة ، بعد ما فعل فعلته فى ديار بنى فزارة .

وقال حمل للربيع وهما سائران بالجيش إلى عنترة :

لقد عصينا بخروجنا هذا أبانا ومشايخ العشيرة ورجالها ، ونخشى أن يستعصى النصر الذى ننشده ، ونبوء بالفشل الذى يشمت بنا الأعداء ، فقد عرف عنترة بالبأس والقوة ، وفوزه الرائع فى جميع مواقفه ، حتى عمت خشيته، وطبقت الآفاق هيبته ؛ والرأى عندى أن نستنصر ظالم بن الحارث ليقوى به جيشنا ، ويدفع عنا سطوة عنترة ، ويصد بلاءه أنى واجهنا ، برجاله الأشداء ، الذين لهم فى المعارك جولات حاسمة؛ وعزز الربيع رأيه ، وذهبا إلى ظالم بن الحارث فى بنى مرة، فأكرم نزولهم، وسألهم عن حاجتهم، فذكروا له أمر عنترة ، من أوله إلى آخره ، فقال :

ولن أكف عن مناصرتكم ، وسأذهب بجيشى معكم لأقضى عليه وعلى من معه، وأسترد لكم أموالكم ، وما أنا بآسف على شىء إلا أن سيفى ذا الحيات سيلوث بدم عبد زنيم هو عنترة ، وما كان لملككم زهير أن يرفع

من شأنه ويلحقه بنسب الأحرار، فشكروا له عظيم نخوته، وكريم استجابته.

كان ظالم بن الحارث هذا فارس بنى مرة وذبيان، وهو شديد القوة عظيم الجرأة، وله سيف يسمى ذا الحيات ورثه عن أجداده؛ إذا نضاه من غمده زاغت الأبصار، وانخلعت القلوب رعباً ومخافة، يرجع صنعه إلى عهد قديم؛ وذلك أن الأقرن بن هامان كان ملكاً جباراً، متكبراً طاغياً، فأصابه الله فى رأسه بعلة أذهبت راحته ليلا ونهاراً، فلما أعياه العلاج، ويئس من الشفاء أمر أن ينادى فى مملكته أن من داواه وشفاه من علته زوجه ابنته، وقاسمه نعمته، واصطفاه وزيراً له، فجاءه حكيم من حكماء زمانه وصنع له هذا السيف، ورسم على صفحتيه بماء الحكمة صورتين لحيتين، وعلقه فوق رأس من مجلسه فى إيوانه، فسكنت آلامه، ولبث مستريحاً لا يشكو ضراً حتى جاءه أجله، ثم تداولته الملوك مدة من الزمان حتى ملكه الضحاك جد ظالم بن الحارث، فلما عرف شجاعته وقوته وهبه له ومنحه إياه.

وساروا جميعهم فى آثار عنترة يسألون عنه كل من لقيهم حتى عرفوا أنه فى جبال الردم.

وقد استبشر الربيع وأخوه إذ أيقنا أن عنترة لا محالة هالك، وقبل أن يصلوا إلى جبال الردم، لقيهم عبد هارب من عبيد الربيع، فسألوه:

كيف نجوت بنفسك؟!

فقال:

لقد شغل عنترة الآن بقتال بنى شيبان، فانتهزت فرصة غيبته، وفررت من قومه بجبال الردم.

فقال الربيع لظالم:

لقد هان علينا الأمر، بغياب عنترة وخلو المنازل منه.

فقال ظالم:

وماذا فعلنا بتلك الغارة، إن لم تكن لقتل عنترة.

قال الربيع: نهجم على قومه ونوقع بهم ونمزقهم، ونستولى على نسائهم وأموالهم، ثم نولى وجهنا شطر عنترة فنقتله شر قتلة، وبعد ذلك نتوجه إلى النعمان ونحضه على أن يبعث أخاه الأسود إلى الملك زهير، فيرغمه ومن معه من بنى عبس على الحضور بين يديه، وحينئذ يتزوج النعمان ابنة زهير رغبا أو رهبا، ويتزوج عمارة عبلة التى يحبها ثم نرجع إلى الأوطان سالمين فرحين.

وساروا ينفذون ما أشار به الربيع، وهناك أغاروا على بنى عبس فهزموهم شر هزيمة، وساقوا الأحياء منهم أسرى أمامهم، وحملوا معهم جميع أمتعتهم وأموالهم بعد معركة عنيفة أبلى فيها العبسيون وظالم بن الحارث ومن معه بلاء عظيما، وأسر الربيع بشارة بن منيع وضربه وأهانه وقال له:

سأحملك إلى مولاك مفرج بن هلال ليعذبك العذاب الأليم.

فقال له :

لعن الله بطناً حملك ولقد نطقت وأنذرت ، لأنك لم تجد عنترة أمامك ولو كان معنا ما استطعتم أن تطئوا بأقدامكم هذا المكان، ولكنه القضاء الذى لا مرد له .

وأظهر الربيع وحذيفة وعمارة فرحهم وشماتتهم ، وجعلوا يؤنبون مالكاً والد عبلة وشداداً أخاه لأنهما تركا أوطانهما وعشيرتهما واتبعا عبداً طغى وتكبر ، وجر عليهما وعلى قومهما البلاء الأكبر ؛ ذلك العبد هو عنترة .

فقال شداد :

لا يهتك غيبة أخيه إلا كل لئيم وضيع ، ولن تدوم غيبة ابنى عنترة ، ولا بد أن يحضر ويعرِّف كلاً منكم قدره ، وأنتم تعلمون أن عنترة لا يهاب الجيوش وإن كثر عددها وعظمت قوتها .

فقال عمارة :

يا شداد ؛ دع الكلام فى عنترة حتى يخلص من شدته ، ويرجع من ديار بنى شيبان ، وترى ما يحل به من هذا الفارس الجبار : ظالم بن الحارث .

ثم أخذوا الأموال وساقوا الأسرى وشغل عمارة بعبلة ، وساروا يقطعون الصحارى ، وظالم بن الحارث من خلفهم ، يسير سير الظافر المفتخر المعجب بقوته وشجاعته ، يطلبون عنترة ليقتلوه ، حتى التقى بهم بعد يوم من مسيرهم .

رآهم عنترة ، وعرف المأسورين من بنى عبس قومه ، فأدرك بفطنته كل ما كان منهم ، فأعمل سيفه فى حراس الأسرى ، وكانوا فى مقدمة الجيش حتى خلصهم ، وفر عمارة إلى أخيه الربيع وظالم بن الحارث ، وأخبرهما أن عنترة قد ظهر ، واستولى على من سقناه من بنى عبس أسيراً ، وفر الكماة من وجهه ، فقال الربيع :

مهما يكن من أمره ، فإنه مسوق اليوم إلى حتفه ، وفاقد حياته ، على يد ظالم بن الحارث الذى جاء للقائه .

وكان اختلاط الفريقين ، واشتداد وطأة القتال ، واستعار نار الحرب ، ثم انجلت عن أسر ظالم ، وأخذ عنترة سيفه ذا الحيات وهزم جمعه ، وقيد عمارة وحذيفة فى وثاق أسرهما ، أما الربيع فقد نجا بهربه وفراره . وسار عنترة ببنى عبس ومن أسره إلى جبال الردم ، فرحين بنصرهم وفوزهم وغنائمهم من بنى شيبان وفزارة وذبيان ومرة ، وكان أشدهم فرحاً بشارة بن منيع ، إذ خلص من يد الربيع ، الذى أضمر له الموت .

وبعد ثلاثة أيام من مقامهم ، جاءهم مفرج بن هلال فى حشد من رجاله ، فطلع عليهم عنترة فى فرسانه ، وكان الربيع قد التقى به هارباً ، وأخبره بما فعله عنترة بظالم ومن كانوا معه ، فطمأنه مفرج ووعده أن ينتقم له بقتل عنترة ، وتمزيق شمله ، وأخبره أن النعمان أرسل أخاه الأسود إلى زهير وقومه ، فى جيش لا يبقى منهم أحداً ؛ ففرح الربيع وظن أن الدنيا



سيقت إليه : فهذا عنترة على باب قبره ، وذلك زهير يهتز ملكه ، ويتصدع بنيانه . ولكن عنترة أحاط بمفرج فى فئته القليلة ، وأغاروا من كل جانب على جيشه ، كأنهم أسودٌ كاسرة ، جاءت أشبالها ، أو صواعق من السماء منقضَّة ، فلا تذر من شىء أتت عليه إلا سحقته ، ففزع من نجا منهم ، وولى الأدبار هارباً ، وأسر مفرج وحذيفة فيمن أسر ، وفر مالك بن حسان فيمن فر ، وبينما عنترة راجع إلى جبال الردم ألفى الربيع ملقى بين جثث القتلى ، يئن من جرح ، أصابه به مالك بن حسان ، لقد وجد الربيع وهو هارب واقفاً ينتظر ما يحل بالطائفتين ، فقال لمن معه :

هذا الربيع علة هذا الشقاق والقتال ، وسبب ما حل بنا من البلاء والويل ، ولا بد أن أجزيه بما فعل ، وطعنه برمحه طعنة جارحة ، فوقع على الأرض يقاسى آلامها .

أمر عنترة أن يؤخذ الربيع أسيراً ، وأن يقيد فى السلاسل ، ليضم إلى مفرج وحذيفة وعمارة ، ولكن الربيع فى صنعه اللئيم ، وندامة الخائن ، وحسرة المغيظ الحاقد ، جعل يستشفع عنترة أن يصفح عنه ولا يهينه ، ويناديه : يا ابن عمى ! أنت من لحمى ودمى ، ولقد كنت من عدائك فى ضلال مبين ، وحسد شائن ، وحقد خائن ، ولكن ما حل بى من النوائب ، بدد غيوم الضلال ، وأكل ما كنت أحمله لك من بغض وعداوة ، فأصبحت

لك أخاً عزيزاً ، لا يحمل لك فى صدره إلا كل محبة وعزة .

قال عنترة :

ذلك دأب اللئام الحسدة ، إذا مسهم الضر أنابوا وخضعوا ، فإذا كشف عنهم مروا كأن لم يثوبوا ولم يخضعوا . وأمر عروة أن يشده على جواده إلى مقر الأسرى من ديارهم ، فى محلتهم الجديدة من جبال الردم ، وبات عنترة وبنو عبس فى منازلهم فرحين بما كسبوا وغنموا .

بات الأسرى فى كهفهم ، وقلوبهم تخفق اضطراباً وخوفاً ، مما عسى أن يحل بهم ، فقد تثور فى رأس عنترة سورة الغضب عليهم فيقطع أعناقهم ، رأى مفرج أن يلجئوا إلى الرجاء والشفاعة ، وطلب الصفح والمغفرة .

وفى الصباح أطل عليهم عنترة ، فقام إليه مفرج قائلاً :

نحن الآن فى قبضة يدك ، ولا راد لحكمك علينا ، ولكن لنا فى عطفك الذى شملت به القريب والبعيد ، والمحسن والمسىء ، وكرم أصلك الذى زاد عزة بك ، ما يطمعنا فى عفوك .

قال عنترة :

إنما يكون الرجاء والشفاعة ، بعد أن ترد الظلامة ، وكيف أعفو عنكم ومال عبلة الذى سلبتموه لا يزال فى أيديكم ؟ إن دماءكم ودماء بنى شيبان عامتهم فى جوهرة واحدة من جواهر عبلة .

فقال مفرج :

إذا اطلعت على الواقع ، وجدت أن لا ذنب لنا فى أخذ عبلة ولا فى أخذ مالها ، ولكن الربيع أغرانا حتى جعلنا شركاء له فى جريمته ، ثم استولى هو على المال جميعه ، ومنح النعمان إياه ، وأنت قادر على أن تذله وتقهره ، وتسترد المال منه ؛ وقد جرد النعمان جيشاً تحت إمرة أخيه الأسود للإغارة على زهير وقومه ليأسروه موثقاً فى القيود إلى النعمان ، من أجل ابنته المتجردة ، التى أبى زهير أن يزوجها للنعمان ، وذلك كله من تدبير الربيع ابن زياد ، وها هو ذا بين يديك ، فافعل فيه ما تشاء ، وإن شئت بعد ذلك أن تجعلنا عتقاء سيفك ، كان لك فضل علينا ، وكنا لك خير إخوة .

غضب عنترة لذلك النبأ الذى أفضى به مفرج ، وهو حملة النعمان على زهير ، وطلب قهره وإذلاله ، فسأله :

ومتى سار الأسود إلى زهير ؟ !

فقال مفرج :

قبل مسيرنا إليكم بخمسة أيام .

فقال عنترة :

وسأرجئُ الفصل فى أمركم حتى أجعل النعمان فى بؤس دائم ، وشقاء مقيم .

وأمر ببقائهم فى معتقلهم حتى يعود ، ثم أخبر عروة وأباه وعمه ما قام النعمان به من الإغارة على زهير يبتغى قهره ، تلبية لمكيدة الربيع بن

زياد وتحريضه ، وقال :

وما كان لمثلى أن يقابل سيئة بمثلها ، ولن أقعد عن نصرته ، ودفع الضر عنه ، وإن بذلت فى ذلك نفسى ، ونادى فى فرسانه أن يستعدوا للقتال، وأمر أخاه شيبوبا أن يسلك بهم أقصر السبل إلى ديار بنى عبس.

٥

خرج عنترة فى خمسين ومائتى فارس، وخلف على قومه خمسين، وجعل الأمر فيهم لعمه مالك، وابنه عمرو ، وسار ومعه شداد أبوه ، وزخمة الجواد عمه ، وعروة بن الورد صديقه، وشيبوب أخوه ورائده ونصيره ؛ ولما وصلوا إلى وادى الرخم، وهو لعرب يقال لهم بنو الأخزم ، يعترض سبيل العراق الموحش القفر ، ولابد لكل سالك أن يمر به ليتزود من مائه حتى لا يموت عطشاً .

ولما وصلوا إليه قال شيبوب لأخيه :

لو كان معنا كثرة من الفرسان، لحلنا بين جيش النعمان وورود الماء فهلك جميعه عطشاً .

فقال عنترة :

وما دام الأمر كما تقول ، فانزل بنا فى هذه الآكام ، وسيعيننا القدر

عليهم، فلا تصل إليهم قطرة من الماء ، حتى تجف ألسنتهم فى أفواههم، وتحترق كبودهم فى بطونهم ، ويرون الموت بأعينهم ؛ وأقاموا بالمكان ينتظرون قادماً أو عابراً، ليلتين كاملتين ، فما طرقهم طارق ، فتحرك القلق فى صدر عنترة، ورآه شيبوب بادياً على وجهه ، فقال له :

سأكشف لك الأمر ، وآتيك بالخبر على عجل .

وبعد يومين مرا على عنترة كأنهما سنتان ، مما كان يساوره ، من الخوف على شيبوب أخيه، لاح له بين الآكام قادم ، وعليه غبرة السفر فأسرع عنترة إلى لقائه ، عسى أن يعرف خبراً عن بنى عبس أو شيبوب ، فإذا هو شيبوب ، ففرح عنترة لعودته سالماً ، وبعد أن استراح قليلاً قال لعنترة :

هدئ من ثورتك وغضبك فسأقص عليك ما يطمئنك ، وإن كان قد تم من الأمر ما يحزنك وينغصك .

قال عنترة :

قل ما بدا لك .

قال شيبوب :

فارقتك كاشفاً باحثاً ، فلم أجد فيما سلكت من سبل أحداً ، فقصدت ديار بنى عبس لأعرف ما عسى أن يكون قد حل بها من بؤس، فاعترض سبيلى جيش النعمان ، يسد الأفق جمعه ، ولا يحصى أحد عده ،

وله غبار وصل ما بين الأرض والسماء، فدلفت من جوف الظلام إلى الأسرى وجعلت أتنقل فيهم ، حتى سمعت مالك بن زهير يقول :

حياك الله يا عنترة ، ولا حرمنا شجاعتك ، الآن يعرف القوم قدرك وفضلك ، فما شربنا كأس المذلة إلا فى غيبتك .

فأسرعت إليه، وجلست بين يديه ، فما كاد يعرفنى حتى سألنى عنك وأين تكون ؟ فقصصت عليه ما فعلته ببنى فزارة وشيبان وظالم بن الحارث ، وأعلمته مكانك ، ومن معك من الأسرى، وقلت له : إن عنترة بعثنى الآن ، لأكشف أخباركم، إذ بلغه أن النعمان عازم على قتالكم ، فأخبرنى ما جرى لكم، حتى أرجع إليه ، فإنه الآن فى قلق شديد .

فقال مالك :

أغار علينا جيش النعمان، فهبت فرساننا ورجالنا تصده عن الأحياء، ودارت رحى القتال يومين كانت قوته تبدو فى تفوقه ، وضعفنا يكمن فى تجلدنا وصبرنا ، ولقد تفاقم الأمر ، وعظم الخطب ، بحضور بنى فزارة ومرة ، واشتراكهم مع جيش النعمان فى قتالنا ، فوقع ما كنا نخشاه من الهزيمة ، وقادوا زهيراً وأبناءه وكثيراً من رجاله ونسائه ونساء قومه أسرى، كما ترى ، وخلفوا الديار مفتوحة لكل سالب وناهب ، ومنتهك حرمة ، ومقترف إثماً وجريمة ، وقال أبى : هذا ما جنيناه على أنفسنا بفقد حاميتنا ، وحامى ذمارنا ، وقاهر أعدائنا ، عنترة بن شداد ، ثم ذهب مالك وشيبوب

إلى زهير ، وقص عليه مالك ، ما دار من حديث بينه وبين شيبوب ، فقال زهير :

ما كان لنا أن نرمى بسيوفنا ، ونكسر رماحنا ، ونضعف قوتنا ، بالحكم على عنترة بمغادرة ديارنا ، ولقد ذقنا مرارة هذا الحكم ، ورأينا سوء عقباه فى أنفسنا وأهلينا وأموالنا ، فمن مبلغُه عنا أخبارنا ، فإن له من المروءة ما لا يقعد به عن نصرتنا ، وكشف البلاء عنا ؟!

فقال شيبوب :

ما بعثنى إلا لأعرف أخباركم، حتى يسرع إلى تفريج الكرب عنكم، وإنى لمسرع فى العودة إليه ، وستجدون يوم النجاة قريباً .

ثم قال شيبوب لأخيه :

وقبل أن أفارقهم علمت أن الأسود قد أخذ من وادى الظبا زاده من الماء ، استعداداً لاجتياز ما أمامه من أرض قفر جرداء ، فأردت أن أكيد لهم ، من حيث لا يعلمون ، وانسللت فى غسق الليل إلى قربهم فشققتها ، وسقيت الرمال ماءها ، وتركتهم قادمين إليك ، ولا يكادون يشرفون على هذا الوادى ، حتى ينفرط عقدهم ، ويفيضوا فرادى إلى مياهه ، ليطفىء كل واحد منهم نار العطش التى فى جوفه، والرأى عندى أن تجعل فرسانك يكمنون فى مسالكهم إلى هذا الوادى ، بحيث لا يعرفهم أحد ، حتى يهبوا فى وجوههم ، وينزلوا عليهم موتاً وتشريداً .

فقال عنترة :

نعمت أخاً ومشيراً حكيما . ونفذ عنترة ما أشار به شيبوب ونصح .

° ° °

تحرك جيش النعمان ، إلى حيث يقيم عنترة وجماعته ، وأوغلوا فى المسير ، وهم يعتقدون أن الماء فى قربهم ، حتى كانوا فى جحيم الظهيرة ، تهب عليهم رياح حارة ساخنة كأنها سموم من نار ولهب ، وأحس قائدهم أنه هو وجيشه فى حاجة إلى الراحة ، وشرب الماء فحطوا رحالهم ، واندفعوا إلى قربهم ليشربوا ، ويسقوا إبلهم وخيلهم وأنعامهم ، فألفوها خالية ، فهبوا سراعاً إلى الأسود قائدهم يخبرونه ، فدهش وتحير وسألهم :

من فعل هذا بقربكم ، وهددكم فى حياتكم ؟ !

فقالوا : لا ندرى ، ولم يطرقنا طارق ، ولا رأينا غريباً فينا .

فقال الأسود :

ولا بد من ماء نتقى به خطر الفناء .

فقال شيخ مجرب من شيوخ بنى لخم وجذام :

يبدو لى أن الأسرى من بنى عبس تغفلوا الجيش وأراقوا القرب ، فأنفذ خمسين رائداً يبحثون عن مياه نردها فى هذه الفيافى المقفرة ، على أن نحرم على بنى عبس الدنو منها ، حتى يسلمهم عطشهم إلى موتهم ، ويكون جزاؤهم من جنس عملهم.

وبعث الأسود مائتى رائد على ظهور المهارى المعروفة بسرعة العدو ، ومعهم قربهم ليبحثوا عن ماء يشربون منه ويملئون قربهم ، ثم يعودون بها مسرعين إلى جيشهم ليسعفوه وينقذوه من الخطر المحدق به .

وكان عنترة وجماعته يكمنون لهم فى طريقهم إلى الماء ، فلما رأوهم قادمين تركوهم يسيرون إلى الغدير حتى كانوا عنده ونزلوا عن خيلهم ، ثم انقضوا عليهم وأحاطوا بهم ، فمن دافع عن نفسه قتلوه ، ومن أسلم إليهم نفسه أسروه ، وسأل عنترة الأسرى عن الأسود وجيشه فقالوا : إنهم فى طريقهم إلى هذا الغدير ، فإن جدوا فى مسيرهم كانوا عندكم صباح الغد ، وإن انتظرونا فى مكانهم أهلكهم العطش ، لأنكم حبستمونا عنهم بالقتل والأسر ، ولم يرجع إليهم منا أحد .

° ° °

اشتد الكرب على الأسود وجيشه ، فثار العطش يلتهب فى أحشائهم ، والقلق على الرواد تضيق به صدورهم ، وأصبح اليأس من عودتهم فى مكان اليقين من نفوسهم ، وأيقنوا أنهم ميتون إن لم يجدوا ماء ، وعبثاً حاول الفرسان بالسعى هنا وهناك أن يجدوا الماء أو يجدوا الرواد .

استطال الأسود غيبة الرواد فظن بهم الظنون وقال :

إما أنهم ضلوا فى متاويه الصحراء ، وإما لقيهم من أفناهم أو أسرهم ، وليس لنا أن نصبر ونرتقب عودتهم ، فقد لا يعودون ، ويهلكنا العطش فى

حر هذه الصحراء الشديد ، وأمر الجيش أن يسير إلى وادى الرخم ، ليأخذوا من مياهه ما يحتاجون ، وبينما هم سائرون ألح عليهم الظمأ ، ولفحهم لهب الصحراء، فشغل كل امرئ منهم بنفسه ، وانحلت رابطة الجيش ، فليس هناك قائد ومقود، ولا آسر ومأسور ، وأصبح يسيراً على الأسرى أن يذهبوا حيث يشاءون، دون أن يعترض سبيلهم أحد ، ولكن أين يذهبون والموت يتهددهم كما يتهدد غيرهم من أعدائهم ، لعطشهم وانعدام الماء ؟

خشى عنترة على زهير وأبنائه ومن معهم من بنى عبس أن يهلكهم الظمأ ، لأنهم أسرى فى جيش الأسود ، وسيجرى عليهم من الضرر ما يجرى على الأسود وجيشه، وأبدى لأخيه شيبوب خوفه عليهم من العطش لعله يجد وسيلة لإنقاذهم، فقال شيبوب :

لا خوف على زهير وأبنائه ومن معه من بنى عبس ، لأنه إذا اشتدت وطأة الحر على جيش الأسود، واستعرت فى أحشائهم نار العطش ، شغل كل منهم بنفسه، وانفرط عقد الجيش، وأهملوا أمر الأسرى من بنى عبس وسأملأ هذه القرب بالماء وأسير بها فى خمسين فارساً إليهم خفية ، وأحاول الاتصال ببنى عبس، لأنهم سيكونون فى عزلة عن الجيش ولا رقيب عليهم من فرسانه، لانشغال كل منهم بنفسه ، وحينئذ أسقيهم وأطلقهم من أسرهم وأعود بهم إليك ، وسآخذ لنفسى الحيطة والحذر حتى أنقذهم من

العطش وأنجو بهم سالمين .

فاطمأن عنترة لهذه الحيلة وقال له :

وليكن معك عروة وخمسون فارساً، ليدفعوا عنك ما عسى أن يكون من خطر ، وسأمكث هنا منتظراً قدوم الأسود وجيشه .

ملأ شيبوب القرب وسار فى الفرسان ليلتقى بالأسرى من بنى عبس فى جيش الأسود ، حتى بان له غبار يمشى من تحته جنود يتخاذلون، يبدو عليهم الذل والانكسار ، من شدة ما أصابهم من العطش وكانوا طالبين مياه بنى الأخزم ، فاختبأ شيبوب وصحبه فى مكان، حتى مر الجيش وهم لا يشعرون بهم، وكان الأسرى من بنى عبس فى عزلة من مؤخرة هذا الجيش ، فظهر لهم شيبوب عند ما جاءوا عنده ، وسقاهم من مائه، وفك قيودهم ، وأخبرهم أن عنترة وجماعته سيحيطون بجيش الأسود إذا ما وردوا الماء، ويعملون فيهم سيوفهم ، فأمر الملك زهير أن يخفوا مسرعين إلى عنترة ليساعدوه فى قتال الأعداء .

لقى عنترة الأسود وجيشه عند الغدير فانقض عليهم بخيله وجعل هو وجنوده ينثرون منهم الرءوس ويشقون الصدور ويبقرون البطون ، وكانت معركة حامية أكلت نارها جيش الأسود وفرقتهم أيدى سبا ، وأسر الأسود أخو النعمان وعدد كبير من فرسانه .

جاء زهير ورجاله فوجد عنترة قد أنهى المعركة، فزاد عنده عزة ومحبة،

وقال :

لقد أخطأنا فيك وفى أنفسنا ، وقد نلنا جزاء خطئنا ، ولم يشأ القدر إلا أن تكون على يديك نجاتنا ، ليكون فضلك واضحاً كالشمس ، لا ينكره إلا لئيم خبيث .

وجدّ عنترة فى المسير إلى جبال الردم ومعه الملك زهير وأبناؤه ومن كان قد أسر من بنى عبس ، فرحين بنصرهم ، فلم يجد فيها أحداً ، ووجد بشارة بن منيع مصلوباً مفقوء العينين فاقد الحياة ، فبلغ الأسى من نفسه مبلغه ، ولم يدر ما حل بقومه فى غيبته ، ولم يكن ذلك إلا غدراً ومكراً من الأسرى وعمه ، فقد ائتمروا عليه وهو فى غزوته ، وفروا هاربين .

٦

فى غيبة عنترة لقهر جيش النعمان ، وكشف ما حاق من ضر وأسر بزهير وأبنائه ، دخل عمه مالك على الأسرى فى محبسهم ليطلع عليهم ويطمئن إلى بقائهم على الحال التى أرادها عنترة لهم حتى يئوب إليهم ، فما رآه الربيع حتى استهواه إلى الجلوس ، وجعل يقول :

إن حبى إياك ، وحرصى على شرفك بين العرب ، وما أخذت به نفسى من الوفاء لك ودفع العار عنك ، كل أولئك يحفزنى على النصح

لك ، فأنت الآن قد وضعت شرفك فى يد عبد أسود هو الآن فى يأس من النجاة ، وأظنك لا تجانب العقل إذا آمنت بأنه محال على عنترة فى مائتى فارس أن يغلب الألوف المؤلفة من فرسان النعمان ، فلا ترتقب له عودة ، ولا ترج له حياة ، وإن أنت بقيت على أمل رجعته ، فلن ترى إلا جيوش الحيرة محدقة بكم وقاهرة لكم ومصنفة إياكم بين قتيل وأسير ، وقد أتيحت لك فرصة غيبته فاغتنمها ، واسلك السبيل لنجاتك ونجاة بنتك وأهلك ، وكان عمرو ابنه معه فعزز قول الربيع وزكاه ، حتى نال من نفس مالك فقال :

وماذا تشير به يا ابن زياد ؟

فقال الربيع :

هذا مفرج بن هلال تأخذ عليه ميثاقه ، أن تكون فى ذمامه ، وأن يرد عليك مال عبلة ، ونذهب جميعاً إلى النعمان ، نقيم فى ظله وكنفه ، حتى يعود الأسود بجيشه وستجد معه زهيرا وأبناءه موثقين فى قيود الأسر والمذلة ، وهناك نقوم بالعمل على أن يتزوج النعمان من المتجردة بنت زهير ، ونصلح ذات البين ، ويتزوج عمارة من عبلة ، وبذلك تكون قد نجوت بابنتك من عار زواجها من عنترة العبد المهين .

فقال مالك :

وإذا ما انتصر عنترة فلن يتركنا ننسم نسيم الحياة .

فقال : لن يخطر هذا ببال رجل عاقل ، ولن يستسيغ العقل انتصار رجل فى مائتين على ألوف مؤلفة من صفوة الفرسان ، فدع عنك هذا الخاطر ، ولا تجعل له أثراً فى نفسك، ونفِّض يديك من عنترة ، فقد أصبح فى عداد الموتى .

وقال مفرج بن هلال :

وإنى أشهدكم على نفسى أن أكون له ، وأن أرد عليه ما أخذناه من مال عبلة .

فغر مالكاً زخرف هذا القول ، ولكنه قال :

لقد علمتم أنى ما غدرت بعنترة إلا أصابنى الضر والمذلة .

فقالوا :

ولكل شىء نهاية ، وقد سعى عنترة إلى نهايته ، فلا ترتقب له رجعة .

فقال مالك :

سأنظر فى الأمر ، وأرسل إليكم ابنى عَمْرا ، بما استقر عليه رأيى .

ولما اجتمع بابنه قال :

لقد دبرت أمراً فيه خلاص الربيع ومن معه ، ودفع التبعة عنا إذا ما قدر لعنترة الفوز والسلامة، ذلك أن نذهب إلى الأسرى ليلاً فنفك قيودهم، ونقلدهم أسلحتهم، ونأمرهم أن يهجموا علينا ، ونحن فى أمننا ، فيحبسونا فى القيود ، ويسوقونا إلى النعمان، وهناك نطلعه على ما دبرنا ،

فينزلنا عنده منزل الأمن والكرامة، وسيعرف عنترة ذلك من نسائنا ورجالنا الذين لم يقفوا على حيلتنا ، فننجو من شره وبلائه ، ويكون غضبه على الربيع ومن معه، فسر عمرو لذلك التدبير وقام لشأنه .

وخرج الربيع ومن معه فى أسلحتهم ، وأعملوا فى حامية بنى عبس من رجال عروة سيوفهم حتى ذلوا واستسلموا ، وقتلوا بشارة بن منيع وصلبوه على جذع شجرة، وساقوا الباقين أمامهم إلى النعمان ، وتركوا الوادى خلواً إلا من جثث القتلى، وجثة بشارة مصلوبة على شجرة .

وبينما هم يسيرون فى الصحراء إذ رأوا غبرة فى الجو تنم عن جيش لا يحصى عدده، فذهبت بهم الظنون كل مذهب ، ولما انجلت الغبرة عن معد يكرب وجيشه أذن مفرج فى صحبه قائلاً :

هذا جيش لاقبل لنا بلقائه ، ولا مخلص لنا إلا الاعتصام بالهرب ، والفرار بأنفسنا، مخلفين وراءنا الأموال والأسرى ، فإن النعمان كفيل بخلاصهم وردهم إليه، وأرخى لجواده العنان ، ومن ورائه مالك بن حسان، وسنان بن عبدالعزى، والربيع بن زياد وأخوه عمارة، أما ظالم بن الحارث الذى كان قد أتى لنجدة بنى فزارة فإنه نقم منهم هربهم ، وقعودهم عن نصرة الحريم ، فتركهم وفر هارباً إلى دياره .

أما عمارة فقد كاد يذوب حسرة على فراق عبلة فقال لأخيه :

كان الموت عندى أهون من ترك عبلة بعد أن كانت فى أيدينا ، فلو

أشفقت على أخيك وأخذناها معنا ؟ ! !

فقال أخوه :

أنت الآن فى خطر ، ففر بنفسك إلى نجاتها ، ولعلك واجد بعد النجاة فرجاً .

فلم يحر جواباً ، وفر معهم والهم على عبلة يعتلج فى صدره ، والأسى ظاهر على وجهه .

كان هذا الجيشُ الذى بدت الهيبةُ منه جيش معد يكرب من بنى زبيد ، وذلك أن الجيداء زوجة خالد بن محارب الذى قتله عنترة ما فتئت فى حزن شديد على زوجها خالد بن محارب ، وقد دأبت على البكاء الذى يذيب المرائر ، حتى ضج من بكائها الأهل والعشائر ، وكثيراً ما كان معديكرب يواسيها ويعتب عليها غلوّها فى جزعها ويقول :

ألم يأن لك أن تخففى من حزنك وتطمئنى ، ما دمتُ مصرّاً على الأخذ بثأر خالد ابن عمى ؟ !

فتقول الجيداء :

لن أبرح عاكفة على جزعى وبكائى حتى أرى مصرع قاتله وأشرب من دمه .

لبث معديكرب فى قومه وأهله على هذه الحال الحزينة حتى بلغه أن عنترة بجبال الردم ، فعقد العزم على أن يذهب إليه فيها ليقتله ، ونادى فى بنى زبيد أن هبوا لنأخذ بثأر خالد من عنترة ، ثم سار فى مئات من

الفرسان والأبطال ، تقدمهم الجيداء فى عدتها الحربية ، وكانت لا تقل عن الرجال شجاعة وبطولة ، حتى التقى بمالك بن قراد ومن معه من بنى عبس مصفدين فى القيود والأغلال ، فعجب أن رآهم على هذه الحال ، وقال لمالك :

لقد جاءنا أن عنترة فعل ببنى شيبان ما فعل ، فأسر مفرج بن هلال ورجاله ، ونهب أمواله ، فكيف رأيناكم على غير ما سمعنا ؟ !

فقال مالك : ما وقعنا فيما ترى إلا بما فعلنا ، وما كنا بعنترة إلا أعزة ، ثم حدثه بخيانته بعد أن غادرهم عنترة إلى محاربة الأسود أخى النعمان ابن المنذر ، وفرار مفرج بن هلال والربيع بن زياد ومن معهما حينما رأوا ذلك الجيش اللجب .

فقال معد يكرب : خسئت يا مالك ، وحل بك الذل والهوان ! أنسيت أن عنترة مشرق فخركم ودعامة قوتكم ، ولولا فضله على بنى عبس لكانوا الآن نسياً منسياً ؟ ! ثم التفت إلى الجيداء قائلا :

هذا مالك بن قراد والد عبلة الذى حض عنترة على أن يقتل زوجك ويأسرك لتقودى جمل عبلة ابنته وتكونى بعد زفافها خادماً لها ، وسأذيقه الآن من ألوان العذاب هو وابنه عمرا ما يخفف وطأة الحزن عن نفسك ؛ أما عنترة فقد ذهب إلى قتال الأسود أخى النعمان وهو لا بد مهزوم أمامه ، فإن قتل فذلك ما تبغينه . وإن ساقه الأسود إلى أخيه أسيراً استوهبته إياه ثم أحضرته وقتلته أشنع قتلة ، وقفل معديكرب وجيشه راجعين ، وقامت الجيداء على مالك وابنه عمرو مهانة وتعذيباً .

٧

فرّت فلول بنى شيبان من وجه عنترة مهزومة مدحورة إلى النعمان يشكون تنكيل عنترة بهم ، وأسر مفرج بن هلال رئيسهم وقائدهم ، فقال النعمان :

وكم كان عددكم ؟

قالوا : كنا فى تسعة آلاف فارس يخبون فى الحديد والأسلحة ، وكان عنترة فى مائتى فارس من بنى عبس ، كأنهم أسود عوابس .

قال النعمان :

تلك التى تقصم الظهر ، وإن لم نعجل بالنظر فى أمر هذا العبد الجبار أكل مالنا من ملك وقوة ، وجعلنا أذلة بعد أن كنا أعزة ، وسأرتقب عودة أخى الأسود من قتاله زهيرا لأبعثه إلى عنترة يسوقه إلينا سوق الأنعام . فأجعل منه عبرة للأنام .

ونجا مفرج بن هلال ، وسنان ، والربيع ، وعمارة ، من أسر عنترة فى غيبته ، بما خان مالك بن قراد وابنه ، وفروا إلى النعمان بن المنذر هاربين من جيش معديكرب ، وهناك جعلوا يحدثون النعمان عن عنترة وما نزل بهم حتى دهش النعمان وخشى منه على أخيه الأسود فسألهم :

وفى كم من الفرسان ذهب عنترة إلى أخى ؟

قال مفرج :

فى مائتى فارس ، وهو على يقين من الفتك بأى جيش يلقاه مهما يبلغ عدده ومهما تكن قوته وجرأته .

فقال النعمان :

إن صح هذا فهو خزى لنا وسبة ، وعسى الأسود أن يأتينا مظفراً ، فلنرتقب عودته أو نبأ من عنده .

وانفض المجلس وقلب النعمان مشغول بأخيه .

وبينما النعمان وثلة من حاشيته وكبار دولته فى أرض يقال لها النجف وقد خرجوا للصيد فيها إذ رأى غبرة مقبلة ، فجمد فى مكانه وجمد أصحابه من حوله ، ينتظرون الغبرة فى رجاء وخشية ، فالنعمان يرجو أن تكون هذه الغبرة لأخيه المنتصر ، ويخشى أن تكون فلولا لجيشه المنهزم ، وانفرجت الغبرة عن طائفة من بنى جذام ولخم ، انفلتوا من روابى وادى الرخم هاربين ، فلما رأوا النعمان نزلوا عن ظهور دوابهم وجعلوا يحثون التراب على رءوسهم بين يديه نادبين حظهم ، وأخبروه أن الأسود أخاه قد هزم ، فقال النعمان :

ويلٌ لكم ! ! أنال منكم عنترة ؟ !

فقالوا : ومن أخيك الأسود وجنده .

قال النعمان :

ذلك قول لا أكاد أصدقه، فقد سمعنا أنه جاءكم برجال لا يجاوز عددهم المائتين، وأنتم فى عشرين ألفاً من الأبطال والفرسان ، وفيم الأسود أخى الذى لا يجرؤ على لقائه آدمى ، فكيف دحركم عنترة ، وكيف فررتم من وجهه ؟ !

قالوا :

كانت عدة الجيش عشرين ألفاً لا شك فى ذلك، وأمدته فزارة ومرّة بخمسة آلاف من رجالهما، وسار أخوك الأسود بهذا الجيش إلى بنى عبس فأذلهم واستولى على ما شاء من أموالهم ونسائهم، ثم عاد بجيشه مظفراً غانما ، حتى وصلنا عيون الظباء، فأخذنا حاجتنا من الماء فى قربنا ثم استأنفنا المسير حتى أجهدنا ، وكان الظمأ قد أحرق أكبادنا ، وجفت من أجله أفواهنا ويبست ألسنتنا؛ ففزعنا إلى الروايا فلم نجد فيها قطرة واحدة، وأشير على أخيك أن يرسل القرب لتملأ من غدير بنى الأخزم ، وكان عنترة هناك فحال بين المبعوثين وما يبتغون ، ونكل بهم تنكيلاً أليما .

فسألهم عن أخيه فقالوا :

لا ندرى عنه شيئا .

وبعد قليل جاءته طائفة أخرى هاربة فأخبرته أن أخاه قد أسره عنترة ، بعد أن أذاق جيشه مرارة الخوف وذل الهزيمة ، فامتلأ صدر النعمان غيظاً وغمًّا ورجع إلى داره واجماً حزينا .

وحينئذ تقدم الربيع إلى النعمان وقال :

لا تحزن أيها الملك بما بلغك من أنباء أخيك وجيشه ، فالأمر أهون من أن تعظمه وتألم من أجله ، وأرى أن تكتب إلى قبائل العرب النافذ فيهم حكمك لينفر إليك رجالها وفرسانها، وإذ ذاك تقفهم على خطورة عنترة وما عسى أن يفعله بهم إن لم يثوروا فى وجهه ثورةً عنيفة عاجلة حاسمة تقضى عليه وعلى بنى عبس ، وسأكتب أنا إلى بنى فزارة ومرّة وأهلى وعشيرتى، فإن لهم ترة عنده ويتمنون موته؛ فتنفس النعمان الصعداء وقال:

لقد تغير وجه الزمان وتبدلت الحال ، فبعد أن كانت القبائل تحتمى بنا أصبحنا نستعديها على أعدائنا وما علينا إلا أن نصبر على قهر الزمان ، وندفع عنا كيده بما أوتينا من حول وقوة ، حتى يقبل علينا بوجهه . ثم كتب إلى عشرين قبيلة تحت إمرته كما كتب إلى معديكرب يقفه على حقيقة أمره ، ويطلب إليه الحضور فيمن يستطيعه من الفرسان ، وأراده على أن يبعث إليه الأسرى من بنى عبس وشيبان ، ووصاه بعبلة خيرا ، ووعده أن يجزيه خير الجزاء إذا قدر له الانتصار على عنترة ؛ وكان رسول النعمان قد أخبر معديكرب أن عنترة نازل بجبال الردم ووادى الرمال .

ذلك قول لا أكاد أصدقه، فقد سمعنا أنه جاءكم برجال لا يجاوز عددهم المائتين، وأنتم فى عشرين ألفاً من الأبطال والفرسان ، وفيم الأسود أخى الذى لا يجرؤ على لقائه آدمى ، فكيف دحركم عنترة ، وكيف فررتم من وجهه ؟ !

قالوا :

كانت عدة الجيش عشرين ألفاً لا شك فى ذلك، وأمدته فزارة ومرّة بخمسة آلاف من رجالهما، وسار أخوك الأسود بهذا الجيش إلى بنى عبس فأذلهم واستولى على ما شاء من أموالهم ونسائهم، ثم عاد بجيشه مظفراً غانما ، حتى وصلنا عيون الظباء، فأخذنا حاجتنا من الماء فى قربنا ثم استأنفنا المسير حتى أجهدنا ، وكان الظمأ قد أحرق أكبادنا ، وجفت من أجله أفواهنا ويبست ألسنتنا ؛ ففزعنا إلى الروايا فلم نجد فيها قطرة واحدة ، وأشير على أخيك أن يرسل القرب لتملأ من غدير بنى الأخزم ، وكان عنترة هناك فحال بين المبعوثين وما يبتغون ، ونكل بهم تنكيلاً أليما .

فسألهم عن أخيه فقالوا :

لا ندرى عنه شيئا .

وبعد قليل جاءته طائفة أخرى هاربة فأخبرته أن أخاه قد أسره عنترة ، بعد أن أذاق جيشه مرارة الخوف وذل الهزيمة ، فامتلأ صدر النعمان غيظاً وغمًّا ورجع إلى داره واجماً حزينا .

وحينئذ تقدم الربيع إلى النعمان وقال :

لا تحزن أيها الملك بما بلغك من أنباء أخيك وجيشه ، فالأمر أهون من أن تعظمه وتألم من أجله ، وأرى أن تكتب إلى قبائل العرب النافذ فيهم حكمك لينفر إليك رجالها وفرسانها، وإذ ذاك تفقهم على خطورة عنترة وما عسى أن يفعله بهم إن لم يثوروا فى وجهه ثورةً عنيفة عاجلة حاسمة تقضى عليه وعلى بنى عبس ، وسأكتب أنا إلى بنى فزارة ومرّة وأهلى وعشيرتى ، فإن لهم ترة عنده ويتمنون موته ؛ فتنفس النعمان الصعداء وقال :

لقد تغير وجه الزمان وتبدلت الحال ، فبعد أن كانت القبائل تحتمى بنا أصبحنا نستعديها على أعدائنا وما علينا إلا أن نصبر على قهر الزمان ، وندفع عنا كيده بما أوتينا من حول وقوة ، حتى يقبل علينا بوجهه . ثم كتب إلى عشرين قبيلة تحت إمرته كما كتب إلى معديكرب يقفه على حقيقة أمره ، ويطلب إليه الحضور فيمن يستطيعه من الفرسان ، وأراده على أن يبعث إليه الأسرى من بنى عبس وشيبان ، ووصاه بعبلة خيرا ، ووعده أن يجزيه خير الجزاء إذا قدر له الانتصار على عنترة ؛ وكان رسول النعمان قد أخبر معديكرب أن عنترة نازل بجبال الردم ووادى الرمال .



٨

استدعى معديكرب الجيداء وأخبرها ما حمله إليه رسول النعمان ، وكانت لا تزال دائبة على تعذيب بنى قراد فقالت :

بودى أن أذهب إلى عنترة وأسقى سيفى هذا من دمه ، فقال :

أرى أن تذهبى إلى النعمان ومعك بنو قراد ، وأن تتركى لى عنترة حتى آتيكم به مقرّنا فى الأصفاد .

وصحبت الجيداء معها إلى النعمان مائة فارس وأسرى بنى عبس وفيهم جرير أخو عنترة ، فاحتال فى الطريق ليفلت من يديها إلى أخيه ، ليفرّ من اضطهادها ، وليخبر عنترة مايدبره خصومه لاغتياله وموته ، ولما وصلت إلى النعمان أبلغته ما قرره معديكرب ، وأنه عما قليل يكون بين يديه وعنترة معه فى قيود الأسر وأغلاله .

انفلت جرير من قبضة الجيداء وذهب إلى أخيه فى جبال الردم ، فاستبشر عنترة بقدومه ، ليقف منه على مصير بنى قراد وعبلة ، وما دبره الخصوم من خطط للنيل منه ، ولما سأله عن ذلك قال :

أما الجيداء فقد نزحت ببنى قراد إلى النعمان ، فى حراسة مائة من رجالها الشجعان ؛ وأما معد يكرب فعما قريب تجده لديك فى خمسة آلاف

من فرسان بنى زبيد ليقتلوك أو يأسروك، تنفيذاً لرغبة الجيداء التى لم يرقأ لها جفن حتى تثأر لزوجها خالد بن محارب بقتلك ، وتلبية لإرادة النعمان الذى حار فى أمرك، وكتب إلى عشرين قبيلة لتمده برجالها لمحاربتك .

فهز عنترة رأسه وقال :

من الناس من يصف نفسه بمقاله ، ومنهم من يصفه الناس بفعاله ، والأيام بينى وبينهم ، والبغى مردود على صاحبه .

ثم حمل إلى الملك زهير وأبنائه ما جاء به أخوه جرير وألقاه بين أيديهم .

فقال الملك زهير :

الغدر من خلق الزمان ، ولا ثبات له على حال ، وعسى أن يصفو الزمان ويطرد لك رضاه وعونه .

قال عنترة :

لن أخشى للزمان تقلبا، ولكنى أشفق على عبلة ، وأخشى أن يصل بها الربيع إلى النعمان، وهناك يزوجها عمارة فتذوق العذاب ضعفين .

قال شيبوب :

والله ما أطلق الربيع وجماعته من عقال الأسر إلا عمك مالك وابنه عمرو ، وما كان لنا أن نستخلفه على الأسرى والغدر كامن فى صدره كمون النار فى الرماد .

قال الملك زهير :

وماذا أنت فاعل الآن ؟

قال عنترة :

سأجعل معديكرب وجماعته قسمة بين الرعب والفناء والهيام فى الخلاء ، ولا يغمد لى سيف حتى أرجع الأسرى من بنى عبس ، وأردّ عبلة إلى حيها وضاءة الجبين كالشمس .

قال زهير :

ولكن معديكرب صعب المراس ، لا تعرفه لقوته أهو من الجنة أم هو من الناس .

فقال عنترة :

ستجده يوم ألقاه من أضعف الناس ، وسأرتقبه على باب المضيق كل ليلة حتى لا يبغتنا على غرة .

وارتقبه عنترة وأخوه شيبوب ليلتين ، وفى الليلة الثالثة طلب زهير عنترة فى باب المضيق فلم يجده، فأيقن أنه خرج لملاقاة معديكرب وجيشه فى الخلاء ، فساوره القلق وخشى أن يحين حينه ، إذ تصدى وحده لملاقاة جيش ذى قوة ، فقال شداد :

إن ابنى عنترة لا يهاب عظائم الأمور ، وقد وكلت أمره إلى من يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وما علينا إلا أن نقوم بحماية هذا المكان حتى يأتينا عنترة أو يجيئنا نبأ من عنده .

° ° ° °

نزل معديكرب وجيشه بين التلال على مقربة من جبال الردم ، وأعلن فى خاصته أن عنترة مع شجاعته لن يخرج إلى الصحراء حيث تتهيأ للجيشين فسحة المكان ، ولكنه سيعتصم بباب المضيق ، وقد تطول لذلك مدة القتال ، فتدركنا جيوش النعمان ، وبذلك تضيع من يدى فرصة قهره ، وسوقه أسيراً إلى النعمان ، وأرى أن يبقى الجيش حيث نزل ، وأذهب أنا على رأس عشرة من الفرسان ونبغتهم فى مقرهم بكرة النهار ، ونقبض عليهم بأيدينا ويكون الجيش فى أعقابنا ، وإذ ذاك لا يجدون بدا من التسليم .

فقالوا : ذلك رأىٌ سديد .

فقال معديكرب :

وسأقوم الآن فى هذا الوقت من الليل على ألا يبرح الجيش مكانه إلا فى الصباح .

فقالوا : صحبك التوفيق .

ونشط معديكرب وفرسانه ذاهبين إلى عنترة ، فلمحوا وقت السحر فى سبيلهم شبحاً ، يمشى فى همس خافت كأنه صوت النفس ، فبعث أحد فرسانه ليتبينه ، فألفاه رجلا ، وظنه كان يستمع لما قاله معديكرب فى خطته التى دبرها لأسر عنترة ، فقال الفارس الزبيدى له :

من أنت ؟ ! وإلى أين تذهب ؟ ! وكيف تمشى وحدك فى هذه الأرض الموات ؟ وفى هذا الوقت من الليل ؟ !

فقال الرجل :

رجل من بنى زبيد بعثنى مولاى معديكرب أرتاد منازل عنترة وأقف على أخباره .

فقال الفارس : ذلك كذب مفضوح ؛ وهم أن يقبض عليه فأعجله الرجل بنبلة أصابت مقتله ، فصرخ صرخة مات على أثرها ، ولما سمع معديكرب صرخته قال :

قتل صاحبكم ، فهبوا إلى قاتله وقطعوه إرباً إرباً ، فأسرع إليه أربعة من الفرسان ، ولكن الرجل كان عداء فابتلعته الصحراء ، وطواه الظلام ، والفرسان الأربعة لا يزالون يطلبونه ويتتبعون أثره ، ولكنه عاد إليهم ومعه فارس ، وكان هذا الفارس عنترة ، وكان ذلك الرجل شيبوبا أخاه .

قتل عنترة من هؤلاء الأربعة اثنين ، ورمى شيبوب ثالثهم بنبلة فى صدره أفقدته حياته ، ولوى رابعهم وجه جواده وارتد سريعاً على أعقابه ، فأبلغ معديكرب ما لقيه هو وأصحابه ، فغشيته غمة كادت تحجب الضياء عن عينيه وفزع إلى جواده وركله برجله ، وانطلق يعدو كالبرق إلى عنترة ، وأشار على هذا الفارس أن يتبعه ، وعلى بقية العشرة أن يسيروا وراءه حتى يأتوا إليه ، وأراد معديكرب تلك الخطة لما يعتقده

من أنه سيقضى على عنترة ثم يرجع لساعته .

وهنالك التقى البطلان عنترة ومعديكرب ، فاشتبكا واحتدم النزال بينهما ، وطال بجواديهما أمد الكر والفر فأدركهما الإعياء والتعب ، فنزلا عن الجوادين وتصاولا راجلين وطال تصاولهما من غير أن يفوز أحدهما على قرينه ، ثم استجمع عنترة قوته ورفع معديكرب وضرب الأرض به ، فأذعن واستسلم ، وقال :

إنى بين يديك فتحكَّم .

فقال عنترة :

ومع هذا فما ولدت امرأة مثلك شجاعة وقوة .

فقال معديكرب :

ومهما يكن من شجاعة وقوة فلا أثر لهما أمام عنترة .

وأسرع شيبوب فأوثقه كتافاً ، وكان قد فرغ من الفارس الآخر وأسره ، وسارا بهما إلى مقرهما من جبال الردم ، وبينما هم سائرون قال عنترة لأخيه شيبوب على مسمع من الأسيرين :

سأجعل معديكرب فدية لابنة عمى ومن معها من بنى قراد وأموالهم ، فإن أبى الأعداء قتلته وقتلت الأسود معه ، ثم أستخلصهم بسيفى .

فقال معديكرب :

إنك إن وثقت بى وفككت من الأسر رقبتى ، كنت لك مدى

الدهر صديقاً حميماً ، ورددت إليك عبلة ورجالك وأموالهم ، وصرفت عنك فرسان قومى ، وأصلحت ذات البين بينك وبين النعمان ، قبل أن يسيل الوادى عليك رجالا وأبطالا ، وأعجاماً وأعراباً ، فلا تنفعك حينئذ شجاعة ، فأنت تعلم أن فى الكثرة قوة ساحقة ماحقة .

فقال عنترة :

إنما أركب الأهوال والمخاطر محواً لاسم العبودية عنى ، وطلباً لمجد لم ينله أحد غيرى ، وسواء على أسبق حينى إلىَّ غايتى ، أم طال بى الأجل فنلت ما أبتغى .

فسكت معد يكرب وعلم أنه رجل باع نفسه بمجد يطلبه ، وأنه لن يتعرض لقتاله إلا من انقطعت أسباب الحياة بينها وبينه .

وما انتهوا من حديثهم حتى أحس عنترة حركة جيش من خلفه ، فظن أن رجال معديكرب يسعون إليه فقال لشيبوب :

أسرع أنت بهذين الأسيرين إلى حيث نحن نازلون واتركنى أقف فى وجه هذا الجيش .

فحار معديكرب وقال فى نفسه :

كيف يمنى عنترة نفسه بصد جيش عدته خمسة آلاف فارس ؛ ولكن الموفق المجدود يفعل ما يريد ، فله وقاية وحصانة بما كتب له من صَوْن وسعادة .

وانتظر عنترة وصول الجيش إليه ، وكان ضوء الصباح قد بان وظهر ، فوجده الجيش قدامهم يلتفت إليهم ولا يهابهم فتقدم بعض فرسانهم وسألوه :

من أنت أيها الفارس ؟

فقال :

أنا عنترة بن شداد ، آسر معديكرب سيدكم ، وهجم عليهم بجواده وجعل يوزع المنايا بينهم حتى قتل منهم مائة فارس .

ولما رأى بنو زبيد فعال عنترة فزعوا وتنادوا أن سدوا عليه الطرقات ، وخذوا عليه مهاربه ، فحملوا عليه من كل جانب وضيقوا عليه الخناق ، وما كادوا يفعلون حتى سمعوا صيحات تدوى فى الجواء :

يا لعبس ! ! يا لذبيان ! !

وكانت هذه الصيحات لجيش أرسله الملك زهير إلى عنترة ، فالتقى به شيبوب فقاده إلى حيث ترك أخاه ، وأفسد على بنى زبيد خطتهم، وأزاح خطر الحصار عن عنترة الذى قوى عزمه بحضور قومه ، وجال فى جيش معديكرب تقتيلا وتشريداً ، ففروا هاربين بعد الخسائر الجسيمة فى الأموال والأنفس ، وكان قائد جيش بنى عبس مالك بن زهير ، ومعه شداد ،وزخمة الجواد ، وعروة بن الورد؛ ثم حمل الجيش الأسلاب والمغانم ، ورجعوا إلى مقامهم بجبال الردم .

واختلى عنترة بمعديكرب وقال له :

عزيز على مثلى أن يحرم قومك من حياة شجاع مثلك ، ولهذا فإنى أرى أن تكتب لابنة عمك الجيداء، أن ترد مالنا عندها من أموال ورجال ونساء ، على خير حال من الإعزاز والإكرام ، حتى نبقى عليك وتعود مكرماً إلى قومك .

فقال معديكرب :

ذلك بعض ما عرضته عليك .

وكان مما كتبه بعد أن شرح للجيداء ما لقيه هو وجيشه : « واعلمى يا ابنة العم أنه لا يطمئن إلى الزمان إلا غافل ، ولا يغتر بنفسه إلا جاهل ، وقد تبين لى أن خيالى كان جانياً على الحقيقة ، وزعمى كان مجانباً للواقع ، وأنا بين يدى فارس لا يهاب الموت ولا تفوته طلبة ، فإن أردت أن تفكى رقبتى فأرسلى من عندك من نساء بنى عبس ورجالهم وأموالهم ، وإلا فلا تنتظرى أوبتى ، وارتقبى لك ولقومك من عنترة سوء المصير » .

وناول الكتاب أحد أبناء بنى عمه فطار به كالبرق إليها .

٩

لما وصلت الجيداء إلى النعمان ألفت قبائل العرب متتابعة إليه ، حاضرة برجالها وفرسانها إليه ، فتقدمت بمن معها من الأسرى والأموال ،

وسره أن علم منها هزيمة بنى عبس ثم سألها عن ابن عمها معديكرب فقالت :

ذهب فى خمسة آلاف من بنى زبيد ليقوم بما جمعت القبائل من أجله ، من قتال بنى عبس وإحضار فارسهم عنترة إليك أسيراً .

فقال النعمان :

لقد أخطأ ابن عمك ، فإن عنترة شيطان مارد ، ولا إخال معد يكرب إلا فاشلا ، فقد كان أخى الأسود فى عشرين ألفاً فمزق جيشه وأسره ، ولم يكن مع عنترة إذ ذاك إلا مائة وخمسون من فرسان قومه .

فقالت الجيداء :

لم يهزم أخاك إلا فقد الماء ، وأنا واثقة أن ابن عمى سيأتيك بزهير ورجاله وعنترة وفرسانه أذلة مقيدين .

فقال النعمان :

إن كان ذلك كما تقولين فإنى جاعله صاحب الأمر فيهم ، يحكم بما يشاء ويختار .

وكان قد اجتمع عند النعمان من قبائل العرب ثلاثون ألف فارس ، وفيهم أمير بنى كندة حجار بن عامر ، الذى كان يود أن يكون أسبق من معد يكرب فى اغتيال عنترة وقهره ، فقال له النعمان :

نحن فى انتظار أخبار معديكرب ، فإن انتصر عليه وإلا فاذهب إليه وافعل به ما تستطيعه.

وبينما هم ينتظرون إذ جاءهم كتاب من معديكرب إلى الجيداء يقص عليها ما جرى له ولجيشه ، ويطلب إليها أن تفك رقبته بإطلاق سراح من فى يدها من بنى قراد ، فلما قرأته قامت إلى النعمان وناولته إياه ، فزاده هذا همًّا على همّ ، وجمع رجال دولته وأمراء العرب وقرأ عليهم كتاب معديكرب إلى الجيداء ، وطلب إليهم أن يفضوا إليه بما يشيرون ، فلم يحر أحد منهم جواباً لما به من حيرة وعجب ، فقال النعمان :

ما دام عنترة قد بلغ من نفوسكم مبلغ الدهشة والحيرة حتى عقد ألسنتكم فقد عولت على المسير إليه ، وإن كان فى خروجى إلى قتال عبد منبوذ من أهله مساس بكرامتى ، ولكن يخفف وقعه على نفسى أنى سأقتله وأريح العرب من شره .

فقال وزيره عمرو بن نفيلة :

لا أرى خروجك إليه من صواب الرأى ، فربما انتصر عليك وخيَّرك بين أمرين : إما الرحيل عنه وإما قتل أخيك الأسود ؛ ومليكنا العظيم لا يبيع أخاه بالدنيا وما فيها .

فقال النعمان :

قد يكون ذلك ، فماذا ترى ؟

فقال عمرو بن نفيلة :

إن عبلة من عنترة كالروح من جسده ، فهو يفتديها بكل ما تملك

يده ، ولهذا كان من سداد الرأى عندى أن تكتب إلى عنترة :

إن أردت عبلة ومن معها من رجال بنى قراد ونسائهم وأموالهم ، فأطلق سراح أخى ومن معه من الأسرى ، وإن لم تفعل أنفذت برأسها إليك ، وقتلت من معها من رجال ونساء .

فاستحسن النعمان هذا الرأى واطمأن إليه ، ولكنه قال :

غير أنى أرى أن من العار أن أكتب إلى عبد لا حسب له ولا نسب ، فتول أنت الكتابة إليه بما تشاء ، ويحسن أن تكون الكتابة إلى الملك زهير فذلك أغنى وأكرم .

كتب الوزير الكتاب وختمه بقوله :

وقد شفعت لكم عند الملك النعمان أن يرجئ غزوكم بجنوده ، فإن فعلتم ما أمرناكم به سلمتم ، وإلا أحاطت جنوده بكم وأذاقوكم الموت ألواناً.

ثم بعث بهذا الكتاب رسولا يصحبه عشرة فرسان ، فلما وصلوا إلى باب المضيق حبسهم الحرس حتى يأذن لهم عنترة حامية عبس ، فلما أذن لهم دخلوا وناول الرسول زهيراً ذلك الكتاب المبعوث فقرأه على مسمع من عنترة ، فعبس عنترة ، واستعظم واستكبر ، وقال لرسول النعمان :

لولا أنك فى حضرة الملك زهير لضربت عنقك ، ولقد سولت للنعمان نفسه أن يتوعدنا بما لا يستطيعه ، وسوف يرى نفسه ومن يؤازره بين أنياب المنايا ، ويومئذ لا تنفع معذرة ، ولا تغنى فدية ، أما الأسود

ومعديكرب وبقية الأسرى ، فليس النعمان ومن على شاكلته بقادرين على أن يأخذوهم منا ، وإنى على استعداد لتسريحهم ، وإطلاقهم عن رغبة لا عن تهديد ووعيد فإذا ما غرتهم أنفسهم وعادوا إلى قتالى غير معتبرين أعدت أسرهم ؛ وأما عبلة وأموالها ومن معها فإن عودتهم إلينا محتومة وإن لم يرض بها النعمان وصحبه ، وحذار أن يمسهم سوء وإلا قضيت على من عندى من الأسرى ، وصلبت الأسود ، وجعلت منه لأخيه أقبح سُبة ، فاذهب إلى صاحبك النعمان ، وبلغه ما سمعت.

فلما عاد الرسول إلى النعمان قص عليه ما سمع وما وعى ، فقال :

ألم يقل زهير شيئاً ؟

فقال الرسول :

لم ينبس ببنت شفة .

فقال : لقد سفه نفسه بتركه الأمر الجسيم إلى غير أهله ، وفاته أنه كلما اشتد الأمر وضاقت منافذ الفرج كان أشد حاجة إلى الحكمة والروية ، وقد وضعنى الآن فى موقف لا أستطيع معه صبراً على عنترة ، فلأذهب من فورى إلى قتاله ، فإنى أخشى أن يكون لكسرى عيون ورقباء ينقلون إليه موقفى العاجز هذا من عنترة ، إن أنا أحجمت أو توانيت عن قتاله وتأديبه ، وإذ ذاك يعزلنى من الملك ويوليه غيرى ، وذلك ما لا أطيقه ، ما دمت قادراً على عنترة وأمثال عنترة .

فقال وزيره عمرو بن نفيلة :

إن الأمور تدرك بالشدة حيناً ، وتدرك باللين أحياناً ، وخير ما يتبع فى هذه الحال أن تفتدى أخاك ومن معه بعبلة وذويها ومن معها ، ولك بعد هذا أن تفعل ما تشاء .

فقال النعمان :

كان ذلك أكرم لو أنا فعلناه من أنفسنا دون هذا الوعيد الذى حمله الرسول إلينا .

فقال عمرو : يجب ألا يمنع الملوك من إقرار الحق ثورة غضب أو غيرها ، وإذا كان الحق لا يجد أمنه فى بيت الملك ففى أى مكان يجده؟!

فقال النعمان :

قم إلى الأسرى وافعل ما بدا لك .

فقام الوزير وأخلى سبيل عبلة وأبيها ورجالها ونسائها ، ورد إليها كل ما كان قد أخذ منها من تاج وجواهر وأموال .

كان هذا العتق مبعث سرور فى نفوس الأسرى ما عدا مالك ابن قراد ، فقد تحدث إلى الربيع بن زياد بما ينم عن ألم ممض وأن الموت أو البقاء فى الأسر أشهى له من عودته إلى عنترة ، ثم قال :

والأيام كفيلة بتمكينى منه وسقيه كأس المنون .

ولما دخلوا على أهليهم وقومهم فى جبال الردم فرحوا بهم ، وانقشعت

سحب الهموم المتلبدة فى أفئدتهم ، وهتفوا لعنترة بالحياة الخالدة ، والعزة القاهرة ، وقال عنترة لمالك عمه :

بئست الأيام التى ينالك فيها ضر وأذى !

فأجاب – وحقده على ابن أخيه مكبوت فى صدره :

ما دمت فينا يا عنترة فلا نضام ولا نشقى ، وما وقعنا فى هذا البلاء إلا بتدبير الربيع ومكره ، فقد أغرى أعواننا المكلفين بحراستهم ليلا ، ففكوا وثاقهم ثم هجموا علينا ونحن نائمون ، فجعلونا فى قبضة أيديهم موثقين ، وساقونا إلى الجيداء ، وهناك أصابنا من اضطهادها ما أصابنا ، إلى أن جاءنا عونك ، وأسبغ علينا فضلك ، فرجعنا إليك مكرمين .

فأخفى عنترة فى نفسه حقيقة عمه ، وقال :

بلغنى بعض ما قصصت .

ثم التفت إلى عبلة وسألها عن أموالها فقالت :

جئت بها جميعاً ولم أفقد منها شيئاً .

فقال عنترة :

لقد جعلت رقبة الأسود فيما قيمته عقال بعير من مالك ، وما دامت أموالك قد ردت إليك فلا بأس من العفو عن أسراهم .

وأمر أخاه شيبوباً أن يطلق سراحهم ، وأن يحضر إليه الأسود ومعديكرب ؛ فلما مثلا بين يديه ألقى عليهما العفو عنهما ، والإذن

بالذهاب إلى ديارهما ، فرغب الأسود أن يمنحه جواداً يمتطيه ، فأمر أخاه شيبوباً أن يحضر إليه ناقة عجفاء عوراء .

أمر عنترة بإطلاق الأسرى على أسوأ حال وأذلها ، فجعلهم حفاة مشاة لا يحملون زاداً ولا ماء ، وراجعه الأسود فى هذا فقال :

يا عنترة : لا ينبغى أن تطمئن إلى صفو الزمان ومسالمته ، فإن له غدرات لا تخطر بالبال ولا يجرى بها الحسبان ، ومن كرم النفس الذى نعرفك به أن تحسن إطلاقنا من الأسر ، وتمنحنا الجياد التى تحملنا والزاد الذى نطعمه ، والثياب اللائقة بمثلى .

فقال عنترة :

إنكم أناس قد ارتكبتم من الخطايا الإنسانية ما تستوجبون به القتل، وإطلاق سراحكم تفضل منى وكرم، عسى أن يكون فى ذلك ما يقوم معوجكم، ويجعل منكم بناة مجد وفضيلة ، وما أردت بتسريحكم على هذه الحال إلا إثارة ملككم وإغضابه ليلتقى بى هو وجنوده ، وحينئذ أريه أنه لا قيمة له عندى ، ولا يجرى له حساب فى خاطرى .

ثم التفت عنترة إلى شيبوب وقال له :

تفضل على الأسود بما يركبه من الدواب ، وأسرع بذلك حتى لا يقع نظرى عليه فى مقرنا هذا .

وجاءه شيبوب بناقة مهزولة جرباء عوراء ، وعبد أعرج أصلع

الرأس قصير القامة ذى حدبتين ، وقال له :

اركب هذه الناقة ومعها هذا العبد ، وأسرع بالهرب راجعاً إلى ديارك قبل أن يراك أخى ويقتلك . فابتأس الأسود وحلف ألا يركب هذه الناقة ولا يتبعه هذا العبد وإن مات فى طريقه .

فقال شيبوب :

لك ما تختار ، وعليك أن تبادر بالخروج قبل أن يعرف أخى غضبك على الناقة والعبد فيأمر بقتلك ، لأنك رددت عطاءه ، ولم تقبل منحته .

فخرج حزيناً مهاناً مدلجاً فى غمرات الصحراء . وكان من بين الطلقاء معديكرب بعد أن جز ناصيته امتهاناً له وتحقيراً لشأنه، فاستسلموا لحكم الزمان وذهبوا لساعتهم إلى النعمان ، وهناك أخبره أخوه الأسود بما سمع ورأى ، فغضب النعمان وأمر قبائل العرب بالتأهب للحرب ؛ وكان أشدهم تحمساً حجار الكندى .

١٠

كان كسرى على علم بالنعمان وأحواله ، فقد كان جواسيسه ينقلون إليه كل شيء فى حينه ؛ ولما علم أن عنترة شق عصا الطاعة على النعمان ومزق شمل الجيش الذى أرسله لأسره أو قتله قال لرجاله :

لقد أكرمنا هذا العبد ، وأسبغنا عليه هدايانا الفاخرة ، وعفونا عن خطاياه نحونا ، ليكون أسير إحساننا ، وليشمر عنده معروفنا ، وليدين بالوفاء لنا ، فلا يؤذى أحداً ممن يستمتع بولائنا ، ولكن غرته شجاعته فأدبر واستكبر ، وجحد بنعمتنا وكفر ، وقد وقف النعمان منه موقف العجز الفاضح ، والضعف الصارخ ، وأرى أن أعزل النعمان عن ملكه ، وأولِّى مكانه من ينهض بعبئه ، ولا ينام على ضيم يراد به .

فقالوا :

ليس من الرأى العجلة فى الحكم قبل التمحيص والتثبت ، ويحسن أن نترك للنعمان فرصة عسى أن يقوم فيها بما تريد ، فإن قطع دابر هذا العبد ودابر قومه أبقيته فى ملكه وإلا عزلته وولينا غيره .

فقال كسرى :

لا ضير علينا أن ننتظر .

ولما جاء كسرى نبأ أسر الأسود ومعديكرب ، واستخلاص عبلة ومن معها من أسرى قومها ، ثارت ثائرته ، وأمر أن يذهب إلى عنترة وقومه جيش يقوده وردشان حاجبه ، وكان من أكبر القواد وأصلبهم عوداً ، وأشدهم بأساً، للقضاء على بنى عبس وإذلالهم ، على أن يغفل النعمان وجيوشه، حتى تبقى لكسرى بين القبائل والملوك هيبته ، فلا يكون

لأحد مطمع فيه أو فيمن يكفله ويحميه .

وكان النعمان قد علم قدوم وردشان ، فأرجأ السفر إلى عنترة ولبث ينتظره بجيوشه التى أعدها ، وكانت تربى على السبعين ألفاً ، فاستقبله استقبالا حميداً وقال :

كيف يقلق الملك كسرى فيبعث مثلك إلى قتال فئة قليلة لا تستطيع البقاء أمامنا ، وكيف رضى لجيشه أن يتحرك لأمر يغنى فيه كتاب يحمل أمراً ونهياً ؟!

فقال وردشان :

بلغه عجزك وافتداء الأسود أخيك بما بذلت من تطامن وإذعان ومال.

فقال النعمان :

كذب من بلّغ ، ولم يكن منى عجز أو إذعان ، ولكنى أمهلت عنترة إمهالا فكان منه ما كان ، ولولا أننا بقينا للقائك لكانت هذه الجيوش التى تراها فى طريقها إليه ، لتجعل عنترة وقومه فى خبر كان .

فقال وردشان :

وما أراه من هذه الألوف المؤلفة دليل على أنك خشيت عنترة وجعلته لك نظيراً ، وهذا ما جعل كسرى يغفلك ويتخطاك ، فبعثنى بجيشه هذا إليه كى أرد ما أضعت من نفوذ ، وأمرك بعد هذا موضع نظر بين يديه .

فابتأس النعمان بما سمع وخشى أن يضمر القدر له ما يكرهه .

بات وردشان ليلته ، وفى الصباح سار بجنده غير عابئ بالنعمان وجيشه إلى جبال الردم حيث عنترة وقومه ، وسار فى أثره حجار بن عامر الكندى والربيع بن زياد وبنو فزارة ثم النعمان فى جيشه ، تتبعه قبائل العرب الوافدة إليه لمعونته .

وكان عنترة حريصاً على أن يقف على أحوال أعدائه حتى يأخذ حذره منهم ، ويدبر أمر غلبهم ، فبعث أخاه جريراً إليهم يتبين حالهم على أن ينقلها إلى أخيه فى حينها ، فتنكر جرير فى زى عبد ، وأقام عندهم فى الحيرة حتى جاء وردشان بجنده ، وتحرك مع الجيوش إلى أخيه ، وبعد مسيرة نصف يوم انفلت من بينهم وسبقهم إلى عنترة ، وأبلغه كل ما قيل وما فعل ، من أن وردشان قد استصغر شأن العرب ، وضعف فى رأيه أمر عنترة ، وأنهم قادمون إليه فى جيوش لا تحصى عداً ، فقام عنترة إلى زهير وأخبره ما جاء به جرير وطلب إليه أن يشير بما يرى فى لقاء الأعداء وصدهم ، فقال :

لا أرى إلا أن نقاتل قتالا نحرص فيه على الموت .

فقال عنترة :

ولن أرضى لك أن تخوض غمار حرب وعنترة ينشق نسيم الحياة ، ولكنى سأخرج فى ألف فارس إلى لقاء الأعداء فى البرارى ، وسأحاربهم

وأهزمهم ، والذى ينجو من الموت لا ينجو من الأسر ، فلا يصلون إليك .

فقال شيبوب :

وسأكون معك يا ابن أمى ، على أن تستمع لقولى وتطيع تدبيرى .

فقال عنترة :

وكيف لا أستجيب لنصحك وقد عودتنى ألا ترى إلا الرأى الصواب

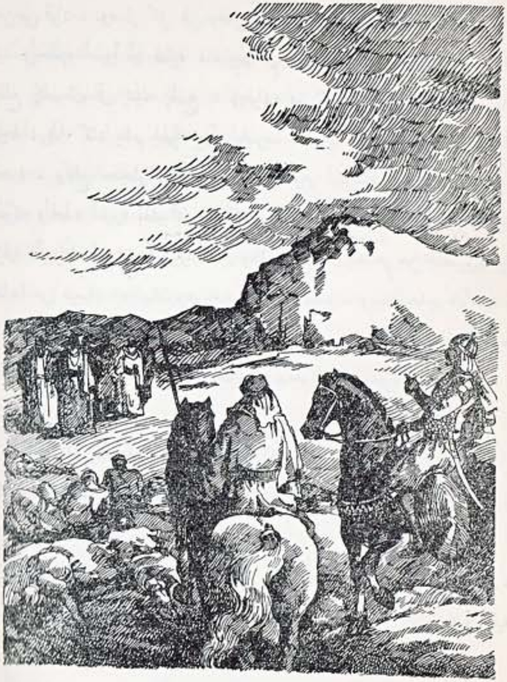
فقال شيبوب :

أرى أن تختار ألف فارس وتسبق بهم إلى وادى السيل الذى يعترض سبيلهم ، والذين هم لا محالة سالكوه ؛ وهناك يكمن الفرسان ويختبئون ، ثم يأخذون الأعداء فيه على غرة ، فيختلط حابلهم بنابلهم ويتصدع بنيان تجمعهم ؛ ونرجو أن يكون ذلك فى ظلام الليل ، حتى يضرب بعضهم بعضاً وهم لا يعرفون .

فقال عنترة :

ذلك رأى رشيد .

وكمن لهم عنترة وفرسانه فى وادى السيل ، وأخذ شيبوب مكانه فى رأس جبل ، وكان وادى السيل أقرب إلى جبال الردم، فسبق عنترة الأعداء وظل شيبوب يجوب بنظره الآفاق من كل ناحية ، ولما أوشك النهار أن ينتهى رأى على بعد أمارات جيش مقبل ، من غبار متصاعد



زاحف ، فنادى :

يا عنترة ! خذ حذرك فقد لاح العدو وظهر ، كأنهم جراد منتشر .

كان النعمان فى مؤخرة الجيش ، وقد انخزلت همته ، وخفق قلبه فى صدره ، فنزل بجنده على مقربة من الوادى لأنه يخشى زحمة المضيق ؛ أما وردشان فقد ساقه عجبه واعتداده بنفسه وجنده أن يكون فى مقدمة الجيش فتقاطرت جنوده إلى الوادى ، وتبعه حجار بن عامر وبنو فزارة وبنو زياد وامتلأت بهم شعابه حين طوى النهار صفحته ، وأقبلت عليهم ليلة حالكة عاصفة مرعدة ، وما لبثوا أن وجدوا رماح بنى عبس وسيوفهم قد نزلت على أجسامهم تمزقها تمزيقاً ، فثاروا فزعين واختلط أعجميهم بعربيهم ، ودوى فى سمعهم صوت عنترة يقول :

هأنذا عنترة بن شداد ، يلقاكم فى كل واد ، ويحصد أرواحكم حصداً ، وإن كنتم كالرمال عدًّا .

وظنت العجم أن الوادى عليهم قد انطبق ، ورأوا ملك الموت فى المكان الذى خرج منه عنترة وزعق ، واختلط الجيشان ، ولم يعرف الأصدقاء من الأعداء ، وتبودل الطعن والضرب وسالت الدماء . . .

ونادى حجار فى بنى كندة : يا ويلكم ! ! دونكم وباب الوادى الذى دخلنا منه ، وكر راجعاً ببنى كندة ؛ وكان عنترة بعد أن قتل من قتل انسل من القتال تبعاً لخطة موضوعة ، وطلب رأس الوادى ومعه عروة وجماعة

من بنى قراد ، وصار كل من وصل إلى باب المضيق وطلب النجاة صاحوا فيه وأخذوه أسيراً أو قتلوه ، وبينما هم كذلك إذا بحجار بن عامر قد طلع والسيف فى يمينه يلمع ، وجواده من تحته يتعثر ، وقد ظن أنه نجا ، فما كاد يشم الهواء حتى ضرب شيبوب جواده بنبلة فوقعت فى نحره ، ووقع حجار من على ظهره ، وهم أن ينهض ، ولكن شيبوباً أدركه وأخذه أسيراً بعد أن شد كتافه، وطلع من بعده بنو زياد وبنو فزارة فأسروا منهم عدداً كبيراً . . . وطلع وردشان بعدهم من المضيق وحوله جماعة من فرسان خراسان وهو يهز فى يمينه العمود، ويهدر هدير الأسود ؛ فانقض عليه عنترة وطعنه فى جانبه الأيمن فخر صريعاً يمج علقماً ونجيعاً ولما رأى أصحابه ما أصابه رموا جماعة عنترة بالحراب ؛ فجرحوا منهم عشرة ، ثم ولوا مدبرين .

وقد تتابع المنهزمون وعنترة وصحبه واقفون لهم بالمرصاد . . . وكان كل خارج من الوادى إذا رأى شبحاً ظنه عنترة، فيرمى سلاحه وعدته ويهيم على وجهه .

ولما انجلى الصباح كان الأعدء قد انقطع خروجهم من الوادى، فدخل فيه عنترة ورجاله فرأوه يسيل بالدماء وقد أقلقه أنين القتلى ، وما فيه إلا رجل مجروح أو جسد بلا روح .

وساق بنو عبس الأسرى والأسلاب وعنترة أمامهم ، وكانت ليلة

وادى السيل يعدها العرب من لياليهم المشهورة .

ولما بلغ النعمان مصير جيش وردشان نادى فى جماعته ألا يمكنوا جيوشه من الدخول فى هذا الوادى ليلا ، وإلا جاءهم الموت من كل مكان ، فصدع جنده بأمره ، وباتوا على ظهور خيلهم حتى أشرق عليهم وجه الصباح ، ثم تقدم النعمان بجيشه وجيوش القبائل التى جاءت إليه تؤيده وتساعده ؛ من زبيدة وكندة ، وشيبان ومرة ، ولخم وزياد وغيرها ، ودخلوا وادى السيل قاصدين جبال الردم ، فألفوا جثث القتلى مبعثرة ، فعظم عنترة فى عينى النعمان ، وشعر بحبه ينبت فى قلبه ، واستعر لهيب الغرام بالمتجردة بنت زهير فى صدره ، وقال فى نفسه :

لو أبقيت على عنترة ، وتزوجت من المتجردة ، لثبتت ببنى عبس أركان ملكى ، وعز جانبى ، وخافنى الأبعد والأقرب ، من قبائل العرب !

ومرت هذه الخواطر بنفسه مر السحاب ، وشغله عنها ما جاءه من القتال ، وأن السبل إلى تحقيقها لا تزال خفية مبهمة .

١١

عاد عنترة بغنائمه إلى جبال الردم بعد أن قتل وردشان ، وأسر حجار بن عامر الكندى ، ومزق شمل جيش كسرى ، وهناك استقبله

الملك زهير ومن معه ، فرحين بنصره مطمئنين ، وأمنوا شر عدوهم .

وأعلن فيهم عنترة أن يستعدوا للقاء النعمان وجنده .

ثم جعل عنترة على مداخل السبل بين الجبال طائفة من عبيد بنى عبس وفى أيديهم القسى والنبال وأمامهم الحجارة ليرموا الأعداء بها إذا ما اقتربوا .

وجاء النعمان بجيشه الجرار وأمامه حامل العلم المذهب الأكبر ، ونزلت القبائل عن يمينه وعن شماله ، ولما رأت بنو كندة وبنو شيبان عنترة تذكروا فعاله معهم ، فهجموا عليه ، فانحط عليهم انحطاط السيل وقتل كثيراً منهم ، وفر بقيتهم هاربين ، وكان النهار قد أدبر فسكنت الحرب لتستأنف فى صباح الغد .

اغتم النعمان بما وقع على بنى شيبان وكندة من فشل وهزيمة ، فعزم فى نفسه أن يخرج من قبته ، ليشرف على المعمعة ، وأن يشترك فى القتال الجيش جميعه ، حتى يكون للكثرة أثرها فى النصر والغلب .

وجاء الصباح ونفذ ما عزم ، وكان عنترة قد جعل جيشه ثلاث فرق ، ميمنة وميسرة وقلباً ، وقبل أن يبدأ القتال تقدم عمارة الوهاب ، ونادى فى بنى عبس قائلا :

ألم يأن لكم أن تفيقوا من غفلتكم ، وتقطعوا بهذا العبد الزنيم صلتكم ، فقد أضلكم اتباعه ضلالا كبيراً ، وأفسد ذات البين بينكم وبين النعمان وكسرى ، حتى غزيتم فى عقر داركم بهذا الجيش الذى سيفنيكم ،

ويمحو آثاركم ، وأنت يا زهير ، كيف تكون ملك عبس وعدنان ، وفزارة وذبيان ، ثم تلقى مقادك إلى ابن أمة ، وترجو عنده الفوز وعلو المنزلة ؟ ! فادفع عن نفسك هذا الضلال القديم ، فسلم للنعمان ذلك العبد الزنيم ، وأنا بإصلاح ذات البين بينك وبينه زعيم ، ليعود كل منا إلى وطنه ، يعيش آمناً فى سربه ، وهناك تتزوج عبلة من يساميها من ذوى الحسب المنيع والشرف الرفيع ، ففكر فى أمرك وقدر ، وقد أعذر من أنذر .

وما أتم قوله ، حتى تقدم شداد فأجابه :

ثكلتك أمك ، وأدبر عنك جدك ، ولا فارق الهوان قومك ، فإنكم معشر بنى زياد قد حسدتم عنترة على ما أوتى من جاه وقوة ، فدأبتم على كراهيته ، والكيد له ، وادعيتم أنكم فى الحسب أعلى منه كعباً ، وأثبت قدماً ، وما أنتم إلا أدعياء فى الحسب والمجد ، ولو أنصفتموه من أنفسكم لأنزلتموه مكان الحبات من قلوبكم ، فكم دافع عنكم ، وحمى بسيفه حريمكم ، وفك من الأسر رقابكم ، فجحدتم فضله ، وكفرتم بنعمته ، فدعونا ندفع هذه الكتائب ، التى أحاطت بنا من كل جانب ، بسبب ما اقترفتموه من غدر بنا ، ووقيعة بين النعمان وبيننا ، وإلا قضينا عليكم بسيوفنا ، ثم التفتنا إلى الأعداء ، وحينئذ يفعل القدر ما يشاء ، والهزيمة للأخسرين أعمالا ، الذين ضل سعيهم ، وأفل نجم سعدهم .

فندم عمارة على قولته ، وخشى سوء عاقبته ، فخرج من صفوف القتال ، غير مشترك فى حرب ولا نزال .

وبرزت الجيداء بنة زاهر إلى الميدان فى أسلحتها ودروعها ، وعليها جلابيب سود ، حداداً على زوجها خالد بن محارب ، وصاحت فى بنى زبيد صيحة حركت ساكنهم ، فاجتمعوا على عنترة من كل جانب ، وقد أوفى عددهم على خمسة آلاف فارس يقدمهم معد يكرب ، وآزرهم نحو ألفين من بنى لخم وجذام ، فاستقبلهم عنترة فى ثلاثمائة فارس عبسى ، وجعل هو وفرسانه يحزون الرقاب ، ويدقون الأصلاب ، ويسفكون الدماء ، وينثرون الأشلاء ، وضرب عنترة معديكرب ضربة أرغمت أنفه ، وأذلت نفسه ، وجعلته يمرق من المعركة مروق السهم ، خشية أن يصيبه ما أصاب قومه وأعوانه من موت زؤام .

أما الجيداء فلم تغنها شجاعتها شيئاً ، وشكها برمحه فى جنبها ، فلوت عنان جوادها ، وفرت مدبرة .

ولما رأى الأسود ما حل بالجيداء ومعديكرب ، استعر صدره غضباً ، وهم أن ينقض هو ومن معه على عنترة وعروة ، فبعث عنترة أخاه شيبوباً إلى الملك زهير على متن الريح ، يخبره بهجوم عنيف ، من جمع كثيف ، بقيادة الأسود أخى النعمان ، وأن يلزم لذلك أفواه السبل بين الجبال ، وأن يمده بألف فارس ، يقضى بهم على هذه الحملة

الكاسرة ، والهجمة الغاضبة ، وأن يترقب النعمان ، فإن وجده حمل علينا ، فليبتدره برجال عبس المغاوير ، ليقضى على ما أعده لنا من تدبير .

فصدع شيبوب بأمره ، ورضى زهير له رأيه ، واستجاب لإرادته .

وجاء مدد زهير إلى عنترة ، ونادى لحرب حامية ، فألقوا بأنفسهم فى نارها ، وامتدت إلى الفريقين ألسنتها ، وتفاقم خطبها ، وما تهيأت الشمس للغروب ، حتى حل البوار بجند الأسود ، وفروا من وجه عنترة وأعوانه ، ليقوا أنفسهم هلاكاً يرونه محتوماً .

ولما لاذوا بالفرار وبعثروا فى القفار ، رجع عنترة ورجاله إلى زهير فى مستقره بالجبال ، وهناك فرحوا بنصره ، وأثنى عليه زهير ثناء جميلا ، بما أبلى فى القتال بلاء عظيماً ، فقال عنترة :

ومن دحا الأرض وأرسى الجبال ، لآسرن النعمان غداً ، ولأجعلنك على عرشه ، قابضاً على زمام ملكه ، ولأذهبن بعد ذلك إلى كسرى ، فأزلزل بسيفى أركان ملكه ، وأغتصب الأمر من يده ، وأجعل الحكم لى فى أمته .

فسر زهير لقوة يقينه ، ومواتاة أيامه ، ثم باتوا فى جبالهم ، بعد أن أقاموا الحرس على أبواب السبل إليهم .

ولما رأى النعمان ما حل بجنده كاد يغشى عليه فأرسل فى طلب وزيره عمرو بن نفيلة ، الذى يطمئن لرأيه ، ويعرف فيه الحزم والحكمة ،

فلما حضر بين يديه ، قال له :

لقد أصبنا برجال لا قبل لنا بهم ، وليس لى الآن أمل فى أن أغلبهم ، وأنتصر عليهم ، وقد جنحت للسلم وإصلاح ما بينى وبينهم ، حتّى أعود إلى ديارى بالبقية الباقية من جندى وأعوانى ، فى أمن وسلامة ، فما رأيك فى ذلك ؟

فقال الوزير عمرو :

إن علموا منك هذا وهم غالبون طمعوا فيك ، والرأى أن تطبق عليهم بجندك ، وتصب عليهم بأسك ، حتّى تجعلهم فى مكان الخشية منك ، وإذ ذاك فاطلب منهم ما تشاء ، فلا تجد منهم إلا السمع والطاعة .

فرضى النعمان برأى وزيره ، وأرجأ الهجوم إلى صباح غد .

وحمل النعمان فى الصباح على عنترة حملة شعواء ، فتلقاها بقلب كالصخرة الصماء ، واشتبك الفريقان ، فعظم الهول ، وتضاءل الحول ، واسود وجه النهار ، وتوارت شمسه بكسف من الغبار ، وبلغت الأرواح التراقى ، وظن أنه يوم المساق ، وكان على النعمان غير يسير ، رأى فيه ما أفزعه ، وصوح زهرة الأمل فى نفسه ، ولما أوشك النهار أن يتوارى ، دقت طبول الهدنة وإرجاء القتال إلى غد ، فذهب كل من الفريقين إلى مضاربه .

١٢

وكان قد جاء غاسق بن الأصهب ، فارس بنى الأشتر ، نبأ هذه الحرب الدائرة رحاها ، بين النعمان وبنى عبس وذبيان ، فرأى من الوفاء بإحسان النعمان إليه فيما سلف ، والإنعام عليه بالهدايا والتحف ، أن ينهض لمعونته ، حتّى يخرج فائزاً من المعركة .

حضر غاسق فى اثنى عشر ألفاً من رجاله ، فى تلك الليلة التى ثقلت على النعمان ، وساورته فيها الهموم والأحزان ، لما رآه من ضعف جنده ، أمام عنترة وصحبه ، على قلتهم عدداً ، وكثرة جيشه وأتباعه ، فلما كان غاسق فى مجلسه ، بث إليه النعمان سوء حاله ، وأنه لو علم وبال مصيره ما خرج من دياره لقتال بنى عبس وفيهم عنترة الذى أيقن أنه لن يغلبه ، وعرض على غاسق رغبته فى أن يصالحهم ، حتّى يأمن جانبهم ، ويعالج خطأ خروجه لقتالهم .

فقال غاسق :

طب نفساً أيها الملك العظيم ، فلن أبرح هذه الأرض حتّى أجعلهم كالرميم ، وإن موعدهم الصبح ، وليس الصبح ببعيد .

فقال النعمان :

إن من الحق أن نبقى على هؤلاء البواسل ، الذين غلبت قلتهم كثرتنا ، وفيهم فارس قل أن تجود الدنيا بمثله ، ولو تخذتهم أعواناً أصدقاء لمكّن لى فى الأرض ، فهابنى كسرى ومن فى قوته من الملوك ، وأرى أن أصاهرهم ، بزواجى من المتجردة بنت ملكهم زهير ، وبذلك أقضى على ما بيننا من شقاق وعداء ، ويكون عنترة أقوى معين ونصير .

فقال غاسق :

غداً سأحضر بين يديك عنترة تحكم فيه بما تشاء .

وبات النعمان على أن يستأنف القتال معتمداً على شجاعة غاسق وقوة رجاله .

وبلغ زهيراً أمر غاسق وجيشه ، وما عزم عليه صباح غده ، فخشى أن يدبر عنه حظه ، ويتحول وجه الزمان عنه ، فعرض على عنترة أمرهم وما عسى أن يقع مما يخشاه ويتوقعه .

فقال عنترة :

لا تخف ولا تيأس ، وكن من الآمنين ، فسأذيقهم العذاب ، وإن ظهروا علينا لجأنا إلى شعاب الجبال ، وحمينا أبوابها ، ومتى طالت بهم مدة الحصار رغبوا فى مصالحتنا على ما نختار ، وإن لم ينتهوا تسللت إليهم ليلا فى عشرة فرسان وقتلت النعمان ملكهم ، ومتى قتل النعمان انفرط عقد جماعتهم ، وولوا أدبارهم خاسرين .

وأصبح الصبح ، وبرز الفريقان ، فبرز غاسق مجرداً من درعه

ولأمته ، استخفافاً بمن يلقاه من أعدائه فتقدم إليه أحد فرسان بنى عبس فجال غاسق جولته ، وأنفذ رمحه فى صدره ، فجندله يتخبط فى دمه ، ثم برز إليه آخر وآخر ، فألحقهما بسابقهما ، فخاف عروة أن يدوم لغاسق غلبه ، فتهاب فرسان بنى عبس سطوته ، وتنحل قواهم من خشيته ، فتقدم إليه بنفسه ، ولكن غاسقاً كان أقدر منه ، فضربه ضربة سقط بها عن جواده ، فأوثقه فى قيود أسره ، ودفع به إلى صحبه ، وكذلك كان مصير شداد بن قراد .

وما كاد عنترة يرى أباه أسيراً ، يساق إلى قوم غاسق سوقاً ، حتى ثارت ثائرته ، وكان غاسق قد لبس لأمته ، واشتمل بدرعه وتزود بثلاث رماح ، فهوى عنترة عليه هوىّ العقاب ، ولما رأى غاسق أنه لا محالة لاق حتفه ، قال لعنترة :

لقد علمت أن فى بنى عبس فارساً لا ينال منه إنس ولا جان ، يدعى عنترة بن شداد .

فقال عنترة :

أنا ذلك الفارس الذى ملأ فم الدنيا عجباً ، والذى لن يتركك حتى يسقيك كأس الأسر أو كأس الموت ، فإن أردت الحياة فسلم نفسك إلينا ، وأطلق سراح من أسرت من رجالنا ، فاختر لنفسك أحد المصيرين .

ولما رأى غاسق أنه لا محالة ممزق ، لجأ إلى الغدر والخديعة ، فقال :

ولكنى علمت عنك كرم نفسك ، وإنصاف خصمك ، فهل أنت منصفى منك ؟

فقال عنترة :

أبنْ عما فى نفسك .

فقال غاسق :

لقد بارزتنى بعد أن أرهقت نفسى فى قتال من سبقك من الفرسان ، وأرى أن ينزع كل منا سنان رمحه ، حتى لا يصاب أحد منا إصابة قاتلة ، ثم نخوض غمار المبارزة ، ويكون الغلب لمن فاق قرنه فى عدد طعناته .

فصدق عنترة قوله ، وبدأ غاسق فخلع من رمحه السنان ورأى عنترة فعاله ، فخاف أن يوصف بعدم الإنصاف ، ومد يده إلى رأس الرمح ، وهم بخلع سنانه ، وعندها اغتنم غاسق الفرصة ، وصاح فى عنترة ، وسحب حربة كان قد خبأها فى ثنايا سرجه ، وزجها إليه ، وطلب بها صدره ، فخرجت الحربة من يده كأنها شهاب ، أو شعلة نار قد انفتح لها باب ، فلما أحس عنترة بالغدر ، أسرع واستتر بدرقته ، فاخترقتها ووقعت فى كتفه ففجرت دمه ، فأحس عنترة كأنما السماء قد انطبقت على الأرض من شدة الغيظ وألم الجرح ، لكن على الرغم من ذلك ركب السنان فى الرمح ، وهزه هزًّا عنيفاً ؛ وكان غاسق قد وقف ينتظر مصير عنترة . ولما رأى أن عنترة لم يخر على الأرض عجب من قوة احتماله وثبات

جنانه وهم بالهرب ؛ ولكن عنترة عاجله بطعنة فى جنبه فسقط على الأرض يتخبط فى دمه .

وعاد عنترة وقد اشتد به الألم ، ودخل بين الجبلين ، وقد تضعضع بعد دخوله جيش بنى عبس وتبعه شاس ابن الملك زهير ، وأخوه مالك .

ولما رأى الربيع حال بنى عبس فرح ،وصاح فى جيش النعمان قائلا :

يا ويلكم ! دونكم الآن بنى عبس فقد قتل عبدها الذى كان يحميها ، وها هم قد انهزموا وفروا يطلبون الشعاب ، فانطبقت الخلائق على بنى عبس ، وقد حمل الأسود ومعديكرب ، وقد عملت فى صدور الطائفتين النصال ، وتقطعت الأطراف والأوصال وطارت الرءوس عن الأعناق ، وقامت نار الحرب على قدم وساق ، ووقع فى بنى عبس المحاق ، وطعنت الأسنة فى المقل والأحداق ، وزاد القتام حتى أظلمت الآفاق ...

وتكاثرت الجيوش على بنى عبس من كل جانب وطريق ، وانحصروا فى الشعب والمضيق ، وقاتل الملك زهير ، وأيقنت بنو عبس بالهلاك وسوء المصير !

° ° °

لما دخل عنترة الشعب نزع الحربة من كتفه ، وضمد جرحه ، ووضع عليه بعض الحشائش النافعة ، وسمع عنترة الصياح ، وشاهد أوائل المنهزمين من بنى عبس قد وصلوا إلى الخيام ، فعلم أنه إن غفل عنهم

دحروا وقتلوا تقتيلا ، فنهض وامتطى صهوة جواده الأبجر على الرغم من معارضة أبناء الملك زهير ، وخطف رمحه ، وطلب باب المضيق وهو من شدة الألم لا يعرف العدو من الصديق ، فرأى الملك زهيراً فى ضيق شديد ، فحمل وزعق فى جيش النعمان ، فجفلت الخيل من شدة زعقته فعادت على أعقابها ، ورمت بفرسانها وركابها ، وتراجعت الجيوش عن باب المضيق، وخاب فأل الربيع. ولما أرخى الليل سدوله عادت بنو عبس وأمامها عنترة الفوارس ، وقد رجحت كفتها بعد أن كانت خاسرة .

وأما النعمان فقد نفس هذا اليوم عنه ، وأصبح فى راحة من نفسه ، وأمن على مصيره ، واجتمع به الأسود ومعديكرب وغيرهما من رجاله ، فرحين مستبشرين ، وأشاروا عليه أن يقتل عروة بن الورد ، وشداد ابن قراد ، فأبى عليهم ذلك قائلا :

ليس من العدل فى شىء أن نشمت برجال وهبوا أنفسهم لقومهم ووطنهم فنقتلهم ، وإنه ليشوب فرحى بانتصارنا شائبة من الحزن على بنى عبس ، الذين امتازوا بالشجاعة النادرة ، حتى دوخت قلتهم كثرتنا ، ولولا غياب فارسهم عنترة ما نلنا منهم هذا اليوم نيلا .

فقال الأسود :

لعلك تجنح لمسالمتهم والصفح عنهم ، وأن ترجع بخيلك ورجلك ، ومن تبعك من القبائل لمعونتك ؟ !

فقال النعمان :

وما دام فى استطاعة المرء أن يجعل عدوه القوى صديقاً ، فيكون قوة إلى قوته ، فمن الحمق أن يعرض عن ذلك ، وأرى أن أرسل إلى زهير من يخطب لى ابنته ، فعسى أن يستجيب لرغبتنا ، فينتهى ما بيننا من عداء ، ويصبح كل منا لأخيه الصديق الحميم .

° ° °

لم يكن الأسود ومن معه راضين عن قول النعمان ، فخرجوا من عنده غاضبين ، وعقدوا مؤتمراً عند الأسود ينظرون ماذا يفعلون ، فقال لهم الأسود :

لا تحزنوا على ما سمعتم من أخى النعمان ، فقد عزمت — إن نفذ رغبته وصالح بنى عبس — أن أكتب إلى كسرى ، فأخبره أن النعمان غدر بك ، وكان السبب فى هزيمة جيشك ، وقتل وردشان قائدك ، فقد بعث إلى عنترة أن يكمن للعجم فى الوادى ، حتى يبغتهم بفرسانه ليلا ، وقد كان ذلك ، دون أن يتقدم النعمان بأية معونة ، فقد أمر جنده وأتباعه ألا يساعدوا قائدك وردشان حتى قتل وتمزق جيشه ، وتفرق أيدى سبا .

ومتى عرف ذلك كسرى عزل أخى ، وجعلنى مكانه ، وإذ ذاك نحكم بما نريد .

فطابت نفوسهم بما قاله الأسود لهم .

ولما خرج الأسود ومن معه من عند النعمان ، ولمح فيهم الغضب وعدم الاطمئنان ، أحضر وزيره عمرو بن نفيلة ليستشيره فيما عزم عليه فقال :

تعلم أنى لا أخفى عليك من أمرى شيئاً ، لما أجده فيك من حزم الرأى ، وصدق المشورة ؛ فهذه المتجردة بنت زهير قد ملكت علىّ قلبى ، وملأ الشغف بها صدرى ، وهؤلاء بنو عبس بلغوا من الشجاعة مبلغاً خطيراً ، فإذا سالمتهم ، ووثقت المصاهرة علاقتى بهم ، كانوا لى الحصن الحصين ، وخشينى البعيد والقريب ، ونظر إلىّ كسرى نظرة ملؤها الهيبة والاحترام . فوجد الوزير فى ذلك القول راحة لنفسه ، إذ كان يحب عنترة وقومه ، ويكره أن يصابوا بسيئة ، فقال :

ذلك رأى رشيد ، وسبيلك إلى تحقيقه أن تفك عروة بن الورد ، وشداد بن قراد من أغلال الأسر ، وتنعم عليهما بالهدايا الفاخرة ، وتبعثهما مكرمين فى صحبة رسول من عندك إلى زهير ، يعرض عليه أمر زواجك من ابنته .

فقال النعمان :

إنما الرسول بعقله وحكمته ، وليس لهذا الأمر أحد غيرك .

قال الوزير :

وأرجو أن يتحقق أملك فينا .

وبينما زهير يتأهب فى الصباح للقتال ، إذ طلع عليه عمرو بن نفيلة ، ومعه عروة وشداد ، فى أفخر ثياب ، وأحسن حال ، فعجبوا أن رأوهما مقبلين ، وفى أعينهما بريق الغبطة .

فلما حضروا بين يدى زهير ، وناوله الوزير بعض الهدايا من النعمان قال :

إن صاحبى لا يضمر لك إلا حبًّا ، وهو شديد الحزن لما يجرى بينكما من قتال ، وقد بعثنى أبلغك وده ، ورغبته فى المسالمة ، وأخطب إليه ابنتك المتجردة ، لتكون آية سلام ، ومعقد ألفة ووئام ، ولتنكشف هذه الغمة ، وتعود إلى مضاربها كل قبيلة .

ثم قال شداد :

وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟ ! ملك أكرمنا وتفضل علينا بالعفو ، فلا ينبغى أن نكون أقل منه تفضلا .

وقال عروة :

وملكنا زهير أصل الفضل والكرم ، فى أمة عرفت بالفضل والكرم .

فالتفت زهير إلى عنترة قائلا :

ما رأيك فى ذلك ؟

فقال عنترة :

ما كان لنا أن نبخس الناس فضلهم ، فقد أعتق أبى وصديقى ، وهو إلى ذلك

خير زوج لابنتك، وشديد الرغبة فى مسالمتنا، ولا ينبغى أن نكون أقل منه فضلا.

فقال زهير لوزير النعمان : بلغ صاحبك أنا رضينا به زوجاً .

ففرح الوزير وشكر لزهير حسن رأيه ، وجميل رده ، وودعه إلى صاحبه ، وهناك بشره الوزير باستجابة الخطبة ، وتلبية الرغبة ، فأعلن فى الجيش السلام، ودقت طبول الفرح والوئام، واجتمع الملكان على بساط من الصفاء والمودة، وأغمدت الأسلحة، وذهب كل إلى مقره من دياره .

ولكن رؤساء القبائل كانوا فى غيظ مما فعل النعمان .

أما الأسود فكان أشدهم غيظاً، وقد تزوج من أخت حذيفة بن بدر سيد بنى فزارة ، ليكون كأخيه النعمان ، فى عزة النصير، وقوة الظهير .

١٣

قتل ورد شان، وتمزق جيشه ، فانتشرت فلوله فى الأرض ، تبتغى المسالك إلى كسرى ، ولما وصلت إليه أنبأته أن النعمان لم يساعدنا فى حرب بنى عبس ، ولم يسمح لفارس من فرسانه ، أن يدخل معنا فى وادى السيل، وتركنا نهباً لبنى عبس ، فقتل قائدنا ، وأبيد كثير منا ، وفرت بقيتنا فزعة من هول ما رأت، ولم نر معونة ، إلا من أخيه الأسود ، وها نحن أولاء ممن فروا، جئنا إليك بعد جهد جهيد ، لنخبرك بما كان ،

ولتأمرنا بما تريد .

وما أتموا قولهم حتى جاء كسرى كتاب من الأسود ، فلما قرأه علم منه أن النعمان ائتمر بجيشه الذى كان يقوده وردشان ، فأرسل إلى عنترة ليكمن له فى وادى السيل ، حتى يبغته ليلا ، وكذلك فعل وقتل قائدك ، وتمزق جيشك ، وقد تزوج الآن ببنت الملك زهير ، وكف عن قتالهم ، وأطلق أسراهم ، وسرح القبائل التى جاءت لمعونته ، ولو أنه كان مخلصاً لك، لوقف من جيشك موقف الحذر الأمين ، ولكان له قوة ومدداً ، ولا تزال رؤساء القبائل فى غم وغيظ مما فعل النعمان .

غضب كسرى وأحضر ابنه خداوند وأمره أن يخرج فى أقوى جيش إلى النعمان ، فيعزله ، ويولى أخاه الأسود مكانه، فرحل هذا فى مائة وخمسين ألفاً ومعه القائد زردخال ، أخو وردشان ، حتى وصلوا إلى الحيرة ، فوجدوا النعمان مشغولا بأمر زواجه ، وإعداد العدة له ، فقبض عليه ، وعلى من يتابعه من رؤساء القبائل، وزج بهم فى السجن مقيدين فى الأغلال ، ثم أحضر الأسود أخاه ، فألبسه تاج الملك ، وأخبره أن كسرى عزل أخاه ، وأقامه مقامه على العرب ، وأنه ذاهب إلى قتال بنى عبس وذبيان ، بهذا الجيش الذى جئت على رأسه ، فاكتب إلى قبائل العرب بذلك ، فمن أطاعك نجا ، ومن عصاك هلك وجاءه الردى .

فأنفذ الأسود كتبه إلى القبائل، وأرسل إلى معديكرب الزبيدى ، وحجار بن عامر الكندى ، ووعدهما أن يأخذ بثأرهما ، ثم استأثر بخزانة أخيه يهب الأموال، ويقيم الولائم فرحاً بمصيره .

اجتمع حجار بن عامر الكندى ومعديكرب الزبيدى ودريد ابن الصمة ومعه زوج ابنته وفارس قبيلته سبيع بن الحارث الملقب بذى الحمار ، وأقاموا عند معديكرب ثلاثة أيام دار فيها الحديث عن عنترة وشجاعته وكيف أن أحداً لم يغلبه، واتفقوا على أن يذهبوا فى رجالهم إليه للقضاء عليه ، وانفرط عقد اجتماعهم على ما عقدوا عزمهم عليه ، فى الموعد الذى يضربونه ، وكان سرورهم عظيماً، عندما بلغهم مجيء إجيش كسرى ، وعزل النعمان ، وتولية الأسود أخيه مكانه ، فأيقنوا أنهم فى هذه المرة منتصرون ؛ وقد أرسل حجار الكندى من فرط سروره إلى معد يكرب أنه سيسبقه فى ستة آلاف فارس كندى إلى أرض الشربة والعلم السعدى ، لتنفيذ ما اتفقوا عليه .

اطمأن بنو عبس إلى هذا الصلح المدعم بالمصاهرة ، فغادروا جبال الردم إلى ديارهم ، وشغلوا بأهليهم وأموالهم ، وأفراحهم بزواج المتجردة بنت ملكهم ، وبينما هم غارقون إلى الأذقان فى علاج شئونهم ، وإصلاح أحوالهم ،إذ جاءهم كتاب من وزير النعمان عمرو بن نفيلة ، يخبرهم ما فعله كسرى من عزل النعمان وسجنه ، وتولية أخيه الأسود مكانه ،

وإرسال ابنه خداوند إليهم لمحو وجودهم فحزنوا ، وحُدّ نشاط الحركة لديهم ، ولما اطلع عنترة على جلية الأمر قال :

لقد عجلنا بالرحيل من جبال الردم إلى الديار ، وكان جديراً بنا أن نعكف هناك حتى يشيع أمر الصلح بين القبائل ، ونقف على نتائجه ، ورأى كسرى فيه ؛ لنكون على استعداد لما عسى أن يكون من فورة حقد ، أو ثورة غضب .

فقال زهير :

لا يزال الأمر فى أيدينا ، فمر أخاك شيبوباً أن يؤذن فى الأحياء بالارتحال إلى جبال أجا وسلمى ، فهى أمنع حصناً ، وأعلى ذروة ، وأوعر مسلكاً ، وأكثر شعاباً .

فتم لهم الرحيل فى أعجل حركة ، وأقصر مدة .

وعلم عنترة أن بنى فزارة ، يذبحون الذبائح ، ويولمون الولائم ، فرحاً بالأسود وتوليته ملكاً على العرب ، فظن أنهم مؤازروه ، ومؤيدو خداوند فى حملته على بنى عبس ، فبعث إليهم فارسين ماكرين محنكين ، وأمرهما بالإقامة بينهم ، حتى يعرفا كل شىء لديهم ، وماذا هم فاعلون ، فى هذا الموقف الأخير ،فرجعا إليه ، وأخبراه أن الربيع بن زياد لا يزال يلازم حذيفة ، ويحرضه على قتال بنى عبس ، وأن حجاراً الكندى قدم إليه فى ستة آلاف فارس ، ليعاونه على غزونا ، ولا يزال ينتظر قدوم

معديكرب فى فرسانه ، ليجهز جميعهم علينا ، ولما علم برحيلنا من الديار إلى هذه الجبال حزن واغتم ، وكتب إلى الأسود بذلك ، وهذا كل ما هنالك .

فقال عنترة لزهير :

الآن وجب علينا أن نخرج فى ثلاثة آلاف للقائهم ، وصدع جمعهم ، ونترك قيساً لحماية الأهل فى تلك الجبال ، وسأريهم من هون العذاب ما فيه مزدجر ، حتى لا يعودوا إلى الغدر بعد أن مننا عليهم بالعتق من الأسر .

ولما كانوا من فزارة على مسافة فرسخين قال شيبوب :

حطوا هنا رحالكم ، لتريحوا أنفسكم وجيادكم ، حتى أعود إليكم من فزارة ، حاملا أخبارها ، كاشفاً أحوالها .

فنزلوا على رأيه ، ليكونوا على بصيرة من أمرهم .

ورجع شيبوب فأخبر أخاه أن حذيفة وحجارا الكندى والربيع ابن زياد ، سيقدمون فى ثمانية عشر ألفاً من كل فارس وراجل ، وأرى أن نبغتهم إذا غشى الليل من ثلاث جهات ، فيضطرب جمعهم ويبدد شملهم ، ويغصون بغدرهم وكيدهم .

فسرى عن زهير ، ولاح له وجه الأمل فى النصر مشرقاً ، وقال :

وأما عنترة فسيكون فى المعركة كالنار المضطرمة ، لا تذر من شىء

أتت عليه إلا جعلته كالرميم .

وبينما بنو فزارة ومن معهم من جيوش حجار الكندى قد أمنوا على أنفسهم وأموالهم مما عسى أن يصيبهم من سوء ، ووسعتهم ليلة داجية فى خيامهم ومضاربهم ، إذ طلع عليهم الموت من كل ناحية ، فصب عليهم من الرماح والأسنة ، والسيوف المشرفية ، فانشقت عنهم خيامهم وخرجوا منها سراعاً وألهى الذعر كثيراً منهم عن أسلحتهم ودروعهم ؛ فهم عزل مجردون ، ودوى صوت عنترة فى أجوائهم فانخلعت له قلوبهم فهم مشردون ، وأدبر الليل عن فوز عظيم لعنترة ، وخسارة جسيمة لفزارة وكندة .

وكان الفريقان ضحوة النهار فى فترة هدنة واستجمام وراحة ، فهال حجارا الكندى هزيمته ، فبرز إلى ساحة القتال طالباً عنترة ، فجاءه كالبرق الخاطف ، وجال به فى الساحة جولات دارت لها عيناه فى رأسه ، ووخزه الندم إذ خرج لمبارزته ، ولم يرد عنترة قتله ، فدفعه عن جواده ، فأسلمه إلى الأرض منهوك القوى ، فحضر شيبوب فأوثقه ، ثم مشى به إلى بنى عبس ؛ ولكن حجارا أظهر من الجزع ما جعل شيبوباً يسأله عن جزعه ، الذى لا يليق بفارس مثله ، فقال حجار الكندى :

يحق لى أن أجزع وأجزع . فقد دهيت بنكبة ما لها من دافع .

فقال شيبوب :

لا إخالك إلا مبالغاً ، فلست أرى إلا أنك فارس هزم جيشه ، وأسر قائده ، والحرب سجال ، يوم لك ويوم عليك !

فقال حجار :

الأمر فوق ما تحكى ؛ فقد شغفت حبًّا بفتاة كأنها البدر إذا اكتمل ، تدعى أمامة بنت أسد ، سيد بنى الريان ، خضت من أجلها كل شدة ، حتى كنت من زواجى بها قاب قوسين أو أدنى وكان للنعمان اليد الطولى فى قربى منها ، ولكن أباها أصر على ألا يتم الزواج حتى أسير إلى قتال عنترة ، وأظهر عليه ، فجمعت له فرساناً تسيل الأنفس على سيوفهم وأسنة رماحهم ، فما أغنوا عنى شيئاً ، ووقعت فى ذل أسره، ثم منّ علىّ بأن فكّ رقبتى ، وخلى سبيلى ، فلما كنت بين أهلى ، وأردت تنفيذ الزواج من صهرى ، قال :

إن ابنتى لم تخلق لعاجز مثلك أسره عبد من بنى عبس ، فبؤت خبيث الريح ، يلتف جلدك على نفس مثقلة بالخزى ، مطمئنة إلى الهوان ، ولا سبيل لك عندي إلا أن تبوء بخزيك ، مهزوماً مخذولا ، أو تنال ثأرك من عنترة فتحظى بزوجك فائزاً منصوراً . ووجدت من تيسير الأمور ما حفزنى على أن أستنفر جماعتى وفرسانى لقتال عنترة ، فقد أخبرنى الأسود بتوليته ملكاً ، واستدعانى إليه ، لأصحبه فى القيام بما رغبت فيه من القضاء على عنترة وقومه ، فكان ما أنا فيه الآن من

أسر مهين .

فقال شيبوب :

إن المجاهد فى سبيل المجد والفضيلة ، لا يبكيه أسر ، بل لا يخيفه موت .

فقال حجار :

ليتنى كنت مجاهداً فى سبيل مجد أو فضيلة ، ولكن حسدى عنترة أضلنى عن الهدى ، وحقدى عليه أوقعنى فى الغدر به وبالملك النعمان الذى طوقنى بمعروفه ؛ ولو كنت إنساناً لا أبخس الناس أشياءهم ، وأحمل لهم فى نفسى من الإخلاص وجميل التقدير بمقدار ما منحوا من مواهب ومزايا — لماوقعت فى هذا المصير الأليم .

ولما لمح منه شيبوب ندمه على حقد أضله ، أشفق عليه ، وفتح له باب التوبة ينجو منه ، فقال :

إذا كنت قد ميزت الخبيث من الطيب ، ونويت أن تستعصم بالاستقامة ، وتطهير نفسك من أدران الحقد والرذيلة ، فلا يزال الأمر فى يدك .

فقال حجار :

الأمر فى يدى إذا صدقت توبتى فى نفس عنترة !

فقال شيبوب :

أظن أنها تصدق فى نفسه متى صدقت فى نفسك .

فقال حجار :

صدقت وبررت ، فإن القول الصادر من القلب يصل إلى القلب ، وإنى أقسم لك برب البيت أنى أخلصت لعنترة ، وسأكون له يداً ولساناً وقلباً ، أنا ومن تبعنى ، والله على ما أقول وكيل !

فلما استوثق شيبوب من صدقه ، خلى سبيله ، فذهب حجار من فوره إلى قومه ونادى :

يا بنى كندة ، كفوا عن قتال عنترة وجماعته ، فقد صلح ما بينى وبينه ، وأصبحت له أخاً حميماً ، أدرأ عنه ظلم الأيام ، وأرد كيد الخائنين من الأنام ، وقد عولت على أن أنصره ، وأشد أزره فى مواقعه ، وأقاتل أعداءه ، حتى يظهر عليهم أو أهلك دونه ، فمن تبعنى منكم فإنه منى ، ومن لم يتبعنى فليس منى .

فجرى الفرح فى دمائهم ، إذ نجاهم هذا الإخاء ، من قتال عنترة ورجاله ، وانقلبوا بسيوفهم ورماحهم على بنى فزارة ، ضرباً وطعناً ، وجال فيهم حجار يقتل ويشرد ، حتى رآه عنترة على هذه الحال ، فثار عجبه ، وجد فى طلبه ، ليقف على شأنه ، ولما دنا منه ترجل حجار وأقبل عليه ، فصافحه وقال :

لقد عرفت فضلك ، وأنا وقومى تحت أمرك ، ولن ألوث نفسى

بعد الآن بالحقد عليك ، وقص عليه ما كان بينه وبين شيبوب أخيه ، وأقسم أنه لن يرى منه إلا أخاً كريماً ، وصديقاً حميماً .

فغفر له عنترة ما مضى ، واتخذه أخاً وحليفاً .

ولما رأى بنو فزارة أن حجارا وقومه قد انسلخوا من جماعتهم ، سُقط فى أيديهم ، وغادروا ساحة القتال هاربين .

وأشار حجار أن يبقوا فى مكانهم ، حتى يأتى معديكرب ودريد ابن الصمّة وسبيع بن الحارث فى جيوشهم فألتقى بهم ، وأنصح لهم بالصلح وإغماد السيوف ؛ فإن انتصحوا صالحناهم وإلا حاربناهم ، وقهرنا كبرياءهم ، وسقيناهم هزيمة مريرة .

فقال عنترة :

لنذهب إلى أهلينا فى مقامهم بالجبال ، حتى نطمئن عليهم ، وبعد ذلك ليكن ما يكون .

* * *

أما ما كان من معديكرب فإنه جمع ستة آلاف من أبطال قومه ، وسار بهم إلى ديار دريد بن الصمة ، فأنبأه عزم الأسود الذى وُلى الملك بدلا من أخيه النعمان ، على قتال بنى عبس ، وصلبهم على البيت الحرام ، يعاونه فى ذلك خداوند على رأس جيش لكسرى ، لا يحصى له عد ؛ فثارت نخوة دريد ، واشتدت مخافته على العرب ، وقال :

لئن صح ما تقول فعلى العرب السلام ، وذلك ما لا أرتضيه ، وسأبقى فى ديارى مرتقباً ما يحل ببنى عبس ، فإن رأيتهم قد غلبوا ، بادرتهم برجالى ، فأنصفتهم من العجم ، ومكنت للعرب فى جزيرتهم ، حتى لا يطمع فينا طامع ، وذلك حق الوطن علينا ، وحق الأمة فى أعناقنا ، لا ينكره إلا عاق أو مجرم .

فلما سمع معديكرب ذلك ، فترت عزيمته ، وارتد إلى دياره ، ولكن الحقد على عنترة لا يزال جاثماً فى صدره ، فما لبث أن أقام فى دياره ثلاثة أيام ، حتى خفت صوت الواجب فى ضميره ، ونسى ما ذكره به دريد بن الصمّة ، فأخذ يجمع الفرسان ، حتى كان من حوله عشرة آلاف ، وسار بهم إلى بنى فزارة ، حيث ينضم إلى رجالهم ورجال كندة ، واتخذ طريقاً يمر فيه بجبال أجا و سلمى ، فرأى فيها خياماً مضروبة ، ولم يكن يعهدها لأحد مقاماً ، فسأل عنهم فقيل بنو عبس وعلى رأسهم قيس بن زهير ، رحلوا من ديارهم إلى تلك الجبال ، وذهب ملكهم وعنترة فى جيش عظيم لقتال بنى فزارة ، فقال لقومه :

جاءتكم البشرى ، وحظيتم بالفوز المبين ، فى هذه الموقعة الحاسمة التى ستنجلى عاجلا عن فناء بنى عبس ، وأنبأهم أمرهم ، ونادى فيهم أن يعجلوا بالقتال ، قبل أن يأتيهم زهير وعنترة ورجالهما .

١٤

بلغ قيساً قدوم معديكرب ، من روّاده الذين كانوا لا ينفكون يجولون حول مقامهم خشية أن يتبعهم عدو وهم فى غير حذر ، فركبوا جيادهم ، وطاروا إلى الصحراء المشرفة عليها جبالهم ، فرأوها تعج بفرسان كالموج وما كاد الفريقان يلتقيان حتى دارت رحى حرب طاحنة ، كان ضحيتها بنو عبس فاعتصموا بالجبال مدافعين ، ودأبوا على تلك الحال مستيئسين ، حتى مالت الشمس للغروب ، فأوقفوا رحاها ، لتستأنف بكرة الغد دورتها .

وفى تلك الليلة نادى قيس فى جماعته ؛ إن الأعداء فى جموع غفيرة لا قبل لنا بالتغلب عليها ، ولا منجاة لنا إلا أن نطاولهم فى المبارزة ، حتى يأتينا أبى ، وحامينا عنترة .

قالوا :

ذلك ما سيكون ، وسنصبر ونطاول حتى يحضرا .

ولما ألحت عليهم شمس النهار ، لتشهد مأساة من مآسى الأقدار ، برز معديكرب إلى الفلاة صائحاً :

أين عبدكم الزنيم ، وأسودكم اللئيم ، الذى به تفخرون ، وعليه تعتمدون .

فبرز إليه قيس بن زهير وقال :

أراك قد فقدت كبرياء العربى ونخوته ، إذ استكبرت على عنترة فى غيبته ، وعطلت من وفاء الحر وكرمه ، إذ نسيت معروف عنترة وفضله ، ولئن وقعت مرة أخرى فى يده ، ليجعلن منك لكل مدكر عبرة .

واحتدم النزال بين الفارسين ، وكان معديكرب أشد مراساً ، وأصلب عوداً ، وأبرع جلاداً ، فأوشك أن يقهر قيساً ، فانهال بنو عبس ليحولوا بينه وبينه ، فانقضت جموع معديكرب عليهم ، وسقتهم هزيمة منكرة ، فارتدوا إلى الجبال يعتصمون بها ، بعد أن قتل منهم خلق كثير ، وكان الليل قد أقبل وأرخى ستوره ، فولى كل إلى مكانه ينتظر غده .

ولم يكن اليوم الثالث على بنى عبس بأخف وطأة من اليومين السابقين حتى حال بين الفريقين سواد الليل .

وبينما زهير وعنترة وحجار الكندى فى طريقهم إلى تلك الجبال ، إذ قال حجار لعنترة :

كان قد وعدنى معديكرب ودريد بن الصِّمَّة سيد بنى هوازن وجشم ، وسبيع بن الحارث فارس بنى حمير ، أن يلتقوا بى فى ديار بنى فزارة ، ولكنهم لم يحضروا ، ولم أقف لهم على خبر ، وأخشى أن يكونوا قد علموا غزوكم لبنى فزارة ، فذهبوا إلى مقامكم فى جبال أجا وسلمى ، فقتلوا رجالكم ، وسبوا نساءكم ، وغنموا أموالكم ، وأرى أن يسرع

شيبوب أخوك ، ليأتينا بخبر قومك فى دار إقامتهم .

وما إن قال ذلك حتى بعث عنترة أخاه فى التو والساعة ، فجاءه بحقيقة الأمر ، فاغتم عنترة وهم أن يرخى لجواده العنان ، فأمسك حجار بزمام جواده وقال :

اجعلنى لهذه المسألة ، وسألتقى بمعديكرب ومن معه ، وأجعل بينكما مودة ، فإن أبى أحضرته معى إليك ، لتفعل به ما تشاء !

فقال عنترة :

دونك ما تريد .

جد حجار فى السير حتى أشرف على ساحة القتال ، فلما رآه معديكرب قادماً قال لخاصته :

قضى اليوم على بنى عبس ، فهذا حجار الكندى يقدم جيشه ، الذى أعده لمعونتكم ، ثم خف هو للقائه ، والبشر يلمع فى جبينه ، فقال :

أهلا بالخل الوفى ، والصديق والولى ، أبشر بفوز عظيم ، وغنم عميم ، وسحق لبنى عبس أليم ، فقدومك ميمون ، وسعى رابح مأمون .

فنظر حجار إليه نظرة طويلة ساخطة وقال :

ميمون عليك ، ورابح لك ، إن أصغيت إلىّ بقلبك ، وحكّمت فيما تسمعه عقلك ، ومشئوم إن بقيت أسير الحقد والهوى ، غارقاً فى

ضلالك القديم .

فدهش معديكرب وقال :

ما هذا الذى تقول ؟

فقال حجار :

أقول : إن للبغى أبواباً مفتحة لا يلجها إلا من غرته الأمانى ، وإن للظلم مرتعاً ولكنه وخيم .

فقال معديكرب :

وماذا تقول أيضاً ؟ ! !

فقال حجار :

أقول : وإن الغدر شر على صاحبه ، وبرق خاطف لا يدوم .

فقال معديكرب :

لم أفهم مقصدك ، ولم أتبين مرادك .

فقال حجار :

ومتى دخل النور عين الضرير ، وبلغ الصوت آذان الأصم ؟ ! !

فقال معديكرب :

ألست مقيما على عهدك ؟ ! !

فقال حجار :

ليتك نقضت ما أبرمناه من عهد ، وكففت عن قتال بنى عبس ،

فسبقتنى إلى تذكر الصنيعة ، وعز الفضيلة ! !

فقال معديكرب :

كأنك لا تقرنى الآن على ما فعلت ؟ !

فقال حجار :

وكيف أقر أخاً على حقد يتلهب ، وغدر فى قلبه يتوثب ؟ ! !

قال معديكرب :

أى حقد وغدر تقصد ؟ ! !

فقال حجار :

حقدك على عنترة ما آتاه الله من فضله ، وغدرك به بما فعلت فى أهله وقومه ، ناسياً معروفه عندك ، وأياديه عليك .

فقال معديكرب :

كأنك قد آخيته ؟ ! !

فقال حجار :

وأصبحت من أتباعه ، والخاضعين لأمره ، والمناصرين له ، فحزت بذلك مجد الرجولة وشرف المروءة .

فقال معديكرب :

وكيف كان ذلك ؟ ! !

فقص عليه قصته ، وما نبه إليه دريد بن الصِّمَّة من الخيانة العظمى

بتمكين الأعجام فى العرب ، وذكَّره بإحسان عنترة إليه ، وما امتاز به من كريم الشيم ، وأنه قد منح من الشجاعة والتوفيق ما لا يغلبه معه أحد ، وقد سبقته إليك ، إبقاء عليك ، وإنذاراً لك ، فإما طاوعتنى فآخيته مثلى ، وإما عصيتنى فكنت لى وله عدواً ، لا نبرح نقاتلك فى هذا المكان حتى نسحقك وجيشك سحقاً ، ولا لوم لك علىَّ ، فقد أعذر من أنذر ، وما جئت إليك إلا شفقة منى عليك ، وقد تركت عنترة وقومه المنتصرين على آثارى مقبلين وقلوبهم تغلى سخطاً عليك لما فعلت من فعال قبيحة مع أهله ، فاختر لنفسك ما يحلو .

فقال معد يكرب :

وكيف يرضى عنى بعد أن فعلت بأهله ما فعلت ؟ ! !

فقال حجار :

وذلك مما حببه إلىَّ ، فهو من سمو الإنسانية بحيث يحب جنسه ، كما يحب أهله ، ولهذا فإنك واجده راضياً ، متى ذهبت إليه أخاً مخلصاً وفيًّا .

فقال معديكرب :

الآن خلصت نيتى ، فوفق بيننا .

وكان حجار قد بعث عقب حضوره إلى بنى عبس ، الذين انحصرت حياتهم المخاطرة الطماحة فى شعاب الجبال ، رسولا يخبرهم بحقيقة الأمر ، حتى يحول ثورة الفزع فيهم إلى هدوء وسكون وثبات واطمئنان .

١٥

فاز حجار الكندى فى عمله ، فأزال عن بصر معديكرب وقلبه غشوات الفتنة ، وجعل رأيه على الحق ، ورد خلقه إلى الرجولة ، وكان زهير وعنترة قد أوفيا فى الليل على الساحة ، فأسرع إلى لقائهما حجار ومعديكرب وأعيان بنى زبيد ، وبعد سلام القدوم ، بلغ حجار رجوع معديكرب إلى السلام والألفة ، نادماً على ما مضى من دنيا الهوى والفتنة ، مقبلا على حياة كلها لعنترة وُدٌّ نصوح ، وعون كريم .

فقال عنترة :

إنما يوزن الرجل بآثاره الحميدة فى الإنسانية بعامة ، وما وقفت من الأعجام هذا الموقف ، إلا لأجعل كيدهم للعرب فى تضليل ، وأحمى من عبثهم بيت الله الحرام ، فإما خافوا بأسنا ، ورعوا حرمتنا ، وإما هزمتهم ، وأذللت رجالهم .

فقال معديكرب :

وأنا وقومى لك بعد هذا خير ظهير . فعم الفرح الجيوش ، وطار إلى بنى عبس فى مضاربهم ، ودخل زهير ومن معه ، وفى صحبته معد يكرب وجنوده ، شعاب الجبال بسلام آمنين ، وأقاموا فرحين .

كان عنترة قد بعث أخاه جريراً إلى الحيرة ، ليأتيه بأخبار العجم ، وما هم فاعلون ، فجاءه بأنهم كونوا منهم ومن قبائل العرب الثائرة على النعمان جيشاً كأنه الليل ، وكان خداوند قدرأى جعله قسمين ؛ أما أحدهما فوجهته إليك ، وأما الآخر فوجهته إلى مكة ، ولما بلغه صلح حجار ومعديكرب ، رأى أن يباغتكم بالجيش جميعه ، حتى يقضى عليكم ثم يذهب به إلى الكعبة ، وقد تركته يتأهب للسفر إليكم .

فاجتمع عنترة بزهير ورجالات قومه ، وفيهم حجار ومعديكرب ، وبلغهم ما جاء به جرير ، فقال زهير :

ليس لنا إلا القتال والصبر .

وقال حجار :

وسنغلبهم وإن كانوا فى عدد الرمال .

وقال معديكرب :

الأمر أخطر من أن يعالج بالأمانى ، وقد عرفتم من جرير ، أن العدو يؤازره من قبائل العرب عدد كثير ، وسيطوى فى حضوره إلينا ليالى وأياماً ؛ والرأى عندى أن نعمل على خلاص النعمان من سجنه ، وحضوره إلينا فى مدة وجيزة ، فإذا ما جاءنا العدو قبله ، طاولناه بالقتال مدة ، حتى إذا ما حضر النعمان ورأت قبائل العرب أنا قد التففنا حوله ، انسلخت من العدو وكان لنا منها قوة ، وحينئذ يضعف

جنده ، ويقل ناصره ، ويكون لنا النصر المبين .

فعظم هذا الرأى لدى الجالسين واستجابوا له .

وقال عنترة :

وسأذهب فى مائة فارس إلى النعمان فى معقله ، فأستله كما يستل السيف من غمده .

فقال زهير : ومن يصبر على غيبتك فى معركة قد يقضى علينا فيها قبل أوبتك .

فقال حجار : سأذهب أنا فى جماعة من فرسانى إلى النعمان ، وستجدوننى حاضراً به فى أوجز مدة .

فقال عنترة :

ومعك عروة بن الورد ، فى مائة فارس من بنى عبس .

° ° °

أخذ حجار وعروة يطويان بفرسانهما الفيافى طيًّا ، لا يفوتهم أن يريحوا خيولهم كلما رأوها فى مسيس الحاجة إلى الراحة ، حتى يحفظوا لها قوتها للهجوم بها فى إنقاذ النعمان ، وقد عول القائدان على أن يكون الهجوم بغتة ، وفى قسوة حادة ، حتى يلقيا الرعب فى قلوب الحامية ، فتتفرق أيدى سبا ، وإذ ذاك يلتقيان بالنعمان ، ويخرجان به فى أمن وسلام ، وذلك ما كان .

وما غادر النعمان الحيرة ، وعلمت قبائل العرب فى طريقه أمر نجاته ، حتى أقبل رجالها وفرسانها يلتفون به ، ويحفون من حوله ، مدفوعين بفطرتهم ، وطبيعة ارتباطهم بملكهم ، فاجتمع له من ذلك جيش عظيم ، يهتف بحياته ، ويعلن ولاءه ، وسار به فى صحبة القائدين حجار وعروة إلى حيث يقيم بنو عبس .

* * *

جعل عنترة ومعديكرب يخرجان فى طائفة من خيرة الفرسان إلى الفلاة كل يوم ، ويوسعان فيها ضرباً ، ويسيران مسافات بعيدة ليقفا على أمر جيش كسرى الزاحف ، واستمرا على هذه الحال ثمانية أيام متواليات ، وفى اليوم التاسع بانت لهم طليعة جيش خداوند بن كسرى ، وكان قائدها فارسا كأنه الشيطان ، يسمى شاه مرد ، فقال معد يكرب :

يا أبا الفوارس ، هذه هى طليعة الجيش قد أقبلت ، فلنسرع بالعودة ، حتى نعد العدة للقائهم .

فقال عنترة :

لن أعود حتى أحدث فيهم شيئاً .

فقال معديكرب :

إذا كان الأمر كما رأيت فليعد كل منا فرسانه ، لنقضى على طليعتهم .

فقال عنترة : لن يقضى عليها إلا عنترة ومعديكرب وحدهما ، حتى نلقى فى قلوبهم منا كل فزع ورعب .

فقال معديكرب :

وذلك لك .

وكان شاه مرد قد ظن أن عنترة ومن معه طائفة من العرب رأت جيشه ، فخرجت إليه تطلب الأمان ، فأرسل إليهم ألفى فارس يتبينون أحوالهم ، وما قربوا من عنترة ومعديكرب حتى وثبا عليهم وثبة الموت ، فمزقوهم شر ممزق ، وانفلت منهم جماعة إلى شاه مرد يتخبطون فى فزعهم ، فقال :

ما دهاكم أيها الفرسان ؟ !

فقالوا :

دهانا الموت الأحمر ، صب علينا صبًّا من فارسين يأخذان أرواح الفرسان غصباً .

فقال :

كيف يقهر فارسان من رعاة الأغنام ألفى فارس لكسرى ؟ ! !

ثم حمل هو عليهما فى جماعة من جيشه ، فأصابهم من الهزيمة ما أصاب أسلافهم ، وطعنه عنترة فى صدره فخر صريعاً ، وفرت بقيتهم إلى خداوند فأخبروه أن عنترة لقيهم فأبادهم ، وقتل قائدهم ، وحامل علمهم ، فغم عليه أمره ، وفزع الملك الأسود معه ، وحذرهم أن يغيروا

ليلا على عنترة ، فيفعل بهم ما فعله بجيشه فى وادى السيل .

أما عنترة ومعديكرب فقد رجعا بفرسانهما ، فلقيهم زهير فى ألف فارس ، وكان قد خرج إليهما ، إذ طالت عليه غيبتهما ، فأخبراه بما جرى ، فأشرق أمامه وجه الأمل فى نصر عزيز ، وعادوا جميعهم إلى جبال إقامتهم ، فقضوا ليلتهم فى استبشار عظيم ، وعزم على مواصلة الجهاد غداً . ولما كان الصباح ، خرجوا فى جيوشهم إلى البطاح ، ليسقوا أعداءهم كئوس الأحزان والأتراح ، فألفوهم قد ضربوا خيامهم ، يرتقبون أمر خداوند رئيسهم ، الذى أرجأ القتال حتى يبعث إلى زهير يطلب إليه التسليم ، ويحذره عاقبة عصيانه وتمرده .

وكان عنترة ومعديكرب يتقدمان الجيش فى عشرة فرسان ، فأقبل عليهما حاجب خداوند وترجمانه وخدمه ، حاملا رسالة خداوند إلى زهير ، فسأله عنترة عما أتى له ، فما اهتم الحاجب له .

فقال الترجمان :

جئنا لزهير وعنترة برسالة من خداوند لهما فيها كل أمن وسلامة ، إن حظيت منهما بالقبول والطاعة .

فقال عنترة :

لقد قرأناها ، وعلمنا مافرضتموه علينا فيها ، وجئناكم لنجزيكم عليها . ونادى فى شيبوب ومن معه من الرجال أن يأخذوا على أيدى هؤلاء

الأنذال ، ويوثقوهم بالسلاسل والأغلال ، وتقدم هو إلى الحاجب فطعنه فى صدره ، فخر يموج فى دمه ، وقال :

هذه خلعتك السنية ، وجائزتك الهنية .

فارتاع الترجمان ، وأحب أن يفهمه أنه ليس منهم فقال :

إذا كانت هذه جائزة الحاجب الأكبر ، فأين جائزة الترجمان المعدم الأصغر — وأشار إلى نفسه بيده — ففهم عنترة مراده ، فابتسم قائلا :

أحقًّا أنك الصلة فى الخطاب بينهم وبين غيرهم من الناس .

فقال :

نعم ، وإنى لأبغضهم بغض الأرض للدم ، وما حملنى على مصاحبتهم إلا الفاقة وكثرة العيال ، ولو أيقنت بنصركم عليهم ، للبثت فيكم حتى أنال كثيراً من أسلابهم ، فيستقيم بالغنى عودى ، ويرف نسيم النعيم على أولادى .

فقال عنترة :

خذ سلب هذا الحاجب ، وارجع إلى أهلك وولدك .

وتقدم معد يكرب فوجد للحاجب نطاقاً مرصعاً بالذهب والفضة ، وثمين الدر والجوهر ، فقال الترجمان .

ألبث فيكم حتى يأتى حاجب آخر فتقتله وآخذ سلبه ؟ ! !

فابتسم عنترة وقال :

انقلب إلى أهلك ، ولا ترين الأعجام وجهك فيقتلوك .

ثم أفلت عنترة زمام ثلاثة من أتباع الحاجب ، ليذهبوا إلى خداوند ويطلعوه على ما رأوا ، وساق الباقين إلى زهير ، ومعه الرسالة المبعوثة إليه ، وأخبره بما كان منه للحاجب ومن معه ، حتى قدم ببقيتهم إليه .

ولما فض زهير الكتاب وقرأه غضب غضبة عربية ، إذ رآه يطلب الطاعة والاستسلام ، أو الوعيد بالحرب وكأس الحمام ، وشكر لعنترة ما فعله بالأعجام المرسلين ، وأمر أن تجدع أنوف الباقين ، ويبعثوا إلى خداوند حتى تكون حالتهم آية على صدق ما يقولون .

ولما رآهم خداوند ، وقصوا عليه ما فعل بهم ، هزته الصدمة ، وعرته الدهشة ، ونادى فى رؤساء جنده ، أن احملوا فى الصباح على بنى عبس ، حملة لا تبقى منهم كل ذى نفس .

فقالوا :

هدئ من روعك ، فسترى غداً ما يسرك .

وما أصبح الصباح حتى تحرك الفريقان ، والتقى الجمعان ، وكأنهم يصدعون فى القتال بأمرهما ، فدخلوا فى ليل من الغبار ، تتهاوى فيه كواكب السيوف والأسنة ، وماج الفرسان كأنهم البحر الزاخر ، وهدروا كأنهم الأسود الكواسر ، وأذن فيهم مؤذن الفناء ، وارتفع ضجيج الأرض منهم إلى السماء ، والتقت الرجال بالرجال ، وتقطعت حبال

الآجال ، وتحكمت البواتر والنبال ، وزلزلت السهول والجبال ، وداموا على هذه الحال ثلاثة أيام ، ينقطع قتالهم بالليل ، ويستحر بالنهار .

ولما لم ينل جيش كسرى من بنى عبس نيلا ، على الرغم من كثرة عددهم ، لجأ خداوند إلى المبارزة ، فوافقت هذه رغبة فى أبطال بنى زبيد وعبس ، وكان كلما برز فارس من جيش كسرى ، تلقفه معديكرب ، وألقاه على الأرض جثة هامدة ، فغضب خداوند وصاح :

أليس فى جيش كسرى من يظهر على هذا الشيطان ، ويقينا بالقضاء عليه ذلة الهوان ؟ ! !

فقال زردخال أخو وردشان :

أيها القائد الأعظم ، إنى بمثل ذلك الفارس زعيم ، ولكنى مدخر نفسى للقاء عنترة فارس بنى عبس وحاميها .

فقال :

أو ليس هذا عنترة ؟ ! !

فقالوا :

ذلك معديكرب الزبيدى ، صالح عنترة بعد عداء ، وائتلف به بعد بغض وكراهية ، وهو وقومه الآن من أتباعه ، الذين يدرءون عنه ويؤازرونه ؛ وليس هذا الفارس بجانب عنترة شيئاً يذكر .

ثم تقلد زردخال سيفه ورمحه ، وركب جواده ودلف إلى الساحة لمبارزته ؛



وهم عنترة بالخروج إليه ، فأقسم عليه معد يكرب أن يدعه له ، فتركه ولكنه لم يترك مراقبته ، خشية أن يغدر زردخال به ، فأعياه معد يكرب حتى استيأس منه ، وكان النهار قد أوشك أن ينتهى ، فقال لمعد يكرب :

ليكن موعدنا الصبح .

فقال معد يكرب :

وليس الصبح ببعيد .

وما كان معد يكرب يخطو بجواده بضع خطوات راجعاً ، حتى أحس هجوماً من خلفه ، فالتفت يتبينه وإذا برمح زردخال مصوب إلى صدره ، فانحرف انحرافاً صدفه عن مقتله ، ولكنه أصابه بجرح فى كتفه ؛ وماهى إلا لمحة الطرف حتى انقض عليه فارس ، فأطار رأسه عن جسمه ، وقال :

ذلك مصير غدرك وخيانتك . وكان ذلك الفارس عنترة ، الذى أعد نفسه لما يخشاه من غدر يتوقعه .

* * *

وحين خرج زردخال لقتال معد يكرب أسرع عقاب الترجمان إلى عنترة قائلا : أنسيت أنك عاهدتنى على أن تمنحنى جواد كل رسول أو حاجب بعد أن تقتله ؟ ! فضحك عنترة وقال :

وأين الرسول أو الحاجب يا عقاب ؟ فقال : ها هو ذا يا مولاى صاحب حجاب خداوند بن كسرى أمام معديكرب يبغى قتاله ،

فانهض إليه وعجل بقتله وأعطنى سلبه .

فقال عنترة :

ما أطمعك ! ألم أمنحك ما يكفيك ؟ !

فقال : بلى ! ! ولكننى أبغى مالا كثيراً من أجل جارية حسناء رأيتها أمس بين خيام بنى عبس ، وقد أحببتها وطمعت فى الزواج منها ، وأردت أن أجمع مالا كثيراً لأبيها لعله يرتضينى لها زوجاً .

فقال عنترة :

ومن تكون هذه الجارية يا عقاب ؟

فقال : سألت عنها فقيل : إنها عبلة بنت مالك بن قراد ، وقد عشقها عبد أسود كان يرعى إبلها ونوقها ، وأبى أخوها وأبوها أن يزوجاه منها ، لأنها حرة كريمة ، ولا يصح فى عرف العرب أن تتزوج الحرة من عبد ولدته أمة .

فضحك عنترة حتى استلقى وقال :

أخشى عليك يا عقاب أن يسمعك هذا العبد فيقتلك .

فقال : وكيف أخاف على نفسى من أحد وأنا فى حمى عنترة بن شداد ؟ !

فضحك عنترة وأدرك أنه لا يدرى ما يقول . ثم قال له :

لا تشغل نفسك بهذه الجارية ، فإن مناط الفرقد أقرب إليك منها ،

١٦

غضب خداوند بن كسرى من أجل حاجبه زردخال ، فجرد سيفه وقال : ائتونى بالأسرى حتى أقتلهم ، فقال له وزير أبيه : كفكف من غضبك ، وأبصر عاقبة فعلك ؛ إنك يا مولاى إن قتلت الأسرى من بنى عبس ، فإنهم سيقتلون أسرانا ، وأنت تعلم أنهم أسروا من رجالنا ما يربى على خمسة آلاف أسير .

ودخل عليهم إذ ذاك الملك الأسود ، وأشار على خداوند أن يأمر الجيش بالهجوم على بنى عبس دفعة واحدة ، فأبى خداوند إلا مبارزتهم فارساً فارساً ، فرجع الأسود غاضباً وحدث أمراء العرب الذين يساعدونهم بذلك فقال الربيع : إن من سعد عنترة أن يبقى هذا الصبى الغرير قائداً لهذه الجيوش ، ثم باتوا فى غم عميم .

وفى اليوم التالى نشبت بين الفريقين معركة دامية حامية ، خب فيها عنترة ووضع ، وسفك وقطع ، وخرج من المعمعة آخر النهار فائزاً منصوراً ، وقد أسر الملك الأسود وساقه إلى معسكره . وقبع خداوند فى خيمته حزيناً كئيباً ، وقال : لقد ضعفت الفرس وذلت ، وأصبحت لا ألوم النعمان على مصاهرته بنى عبس ، فليس فى العالم شرقاً وغرباً من

ينافس عنترة فى بطولته وشجاعته ، فقال حجابه : إن هؤلاء القوم لا يغلبون إلا بالكثرة ، ونرى أن تهجم عليهم جيوشنا فى الغداة دفعة واحدة ، فيضطرب حبلهم وننتصر عليهم . فقال : ذلك خير لنا ، وأمر أن ينادى فى الجيش بما اتفقوا عليه من الهجوم فى الغد على الأعداء دفعة واحدة .

علم ذلك عنترة فى الصباح فأمر جنده أن يثبتوا فى المضيق مجتمعين ، وماج الفريقان كالموج المصطخب ، وعصفت بالفرس سيوف بنى عبس وحلفائهم ، وملأ عنترة بقتاله صدورهم خوفاً ورعباً ، وقتل كثيراً من فرسانهم ، وأباد كثيراً من جموعهم ، ودامت هذه المعركة عشرة أيام ،

وفى اليوم الحادى عشر تكاثر على عنترة وقومه العدو وقصده الفرسان من كل جانب ، وجرح فى أربعة مواضع من جسمه ، وجرى منها دمه ، فبلل ثيابه ودرعه وهو صامد لا يبرح مكانه ، وقد طمع فيه الأعداء ، وصاح الربيع :

يا ويلكم ! ! دونكم والحملة على عنترة ، فقد جرح ، وكلت سواعده ، وخارت قواه ، واقتلوه واسبوا حريم بنى عبس فهن مثل البدور الطوالع .

فما فرغ الربيع من كلامه حتى ظهر غبار علا وثار ، وطلع من من تحت الغبار جنود وعساكر كأنهم البحار الزواخر ، وهى مقبلة على

جناح السرعة ؛ فلما رآهم الربيع التفت إلى حذيفة وقال له :

إن صدق ظنى فهذا الغبار غبار الملك كسرى أنو شروان ، وقد أتى فى جميع عساكر خراسان لمعاونة ابنه خداوند وقد خاف عليه الهلاك ، وإن كان هذا صحيحاً فما يسلم أحد من بنى عبس !

ولما حدق النظر رأى الملك النعمان وإلى جانبه الأمير حجار بن عامر وعروة بن الورد العبسى ، ومن خلفه جيش جرار ينادى : يا آل لخم يا آل جذام ! أبشروا يا بنى الأعجام بالويل والإرغام ! ولما سمع الربيع هذا النداء انقطع ظهره ، وحار فى أمره ، وذهب ما عنده من الفرح ، وحل به البؤس والترح ، والتفت إلى حذيفة وقال له :

إن بنى عبس خلصوا الملك النعمان ، وقد جاءهم ليناصرهم ، ويغلب على ظنى أن الذى خلصه الأمير حجار وسوف يلومنا النعمان ، ويعيب علينا تركه" والانفضاض من حوله ، وقتالنا أصهاره وأنسابه ، وإن لم ندبر لنا حيلة تحمينا وقعنا فى الهلاك ؛ فلجأ الربيع إلى المكر والخديعة ونادى فى قبائل العرب : كفوا عن الضرب والطعن ، فقد جاءكم الملك النعمان بعد أن خلص من قيوده رغم أنف أعدائه ؛ فسمعت قبائل العرب نداءه ، وانحازت إلى جيش النعمان مهنئة له بخلاصه ، معلنة أنها من جنده وأنصاره .

ولما بلغ خداوند قدوم النعمان ، وانصداع الجيش بانفلات القبائل ،

اعتراه الخوف والفزع والتف حولة المرازبة والحجاب خوفاً عليه ، وأمر بوقف القتال حتى ينظر ما يكون .

* * *

عرف النعمان أن الأمر أصبح فى يده ، وأن جيش كسرى أمامه كالقلعة المحصورة أمام المغير القادر ، فلم ينسه ذلك أن يأخذ الأمر باللين والحكمة ، ويعالجه بالرفق والحسنى ، ليكون أجدى وأنفع فخرج من الصفوف المتراصة من حوله ، يحف به حجار وعروة ، وبعض من كبار دولته ، وقصد خداوند فى قبته ، فسلم وحيا ، ودعا لأبيه بدوام العز والسطوة ، وقال :

لا يكن فى صدرك حرج من قدومى إليك ، فما زلنا على ولائنا لأبيك ، سواء علينا أأدبرت عنا الأيام أم أقبلت ، رضى عنا أبوك أو سخط ، فلا ننسى الفضل بيننا ، ولا ننكر المعروف فينا . ولقد كان ذنبى لدى أبيك أنى صاهرت بنى عبس ، وأنبئك الآن أنى ما أقدمت على هذه المصاهرة إلا لما رأيته فى أثناء حروبى معهم ، من قوتهم وبأسهم ، وامتناعهم على أن تنال منهم أية قوة ، فأحببت أن أحمى الألوف المؤلفة من رجالنا وأعز جانبى وجانب أبيك ، بالتقرب إليهم ، ولكن والدك كان أذناً للحساد وكيد الحاقدين ، ففعل بى ما فعل من عزل

وأسر ، والآن قد كان ما كان ، وقد رأيت بعينك ما لم تسمعه أذنك ، فإن رأيتم أن تعيدوا الحق إلى نصابه ، وتجعلوا ملك العرب فى أهله ، كنت لكم خير ولى ، وأكبر نصير ، وإن أصررتم على الاستجابة لخدعة الحاقد ، وزور الحاسد فالأرض أمامى واسعة ، وكفاك أنك رأيت جيشك لا يطول هذه القوى الساطية قوة ، ولا يفوقها سطوة ، وأنه خشع أمامها خشوع الوحش المروض إذا خلع نابه ، وقلم ظفره ؛ وأنت الآن آمن فى جيشك ، طليق على سجيتك ، فانظر ماذا ترى ؟

فعراه الخجل وقال :

لا يكون إنساناً من يعرض عن نداء الواجب ، ولن أعود إلى أبى حتى تكون معى أنت ومن تحب من صحبك وأعوانك ، وهناك تلقون نضرة وسروراً ، فقد قدرتك الآن حق قدرك ، وسأطلع أبى على جلية أمرك ، وأود أن يأتينى هنا عنترة ، حتى أهب له الجوائز السنية ، وأجعله ردءاً لى إذا ما انكفأ الزمان واسودت الأيام ، كما أحب أن يكون فى صحبة الملك زهير ، حتى ندفن فى هذه الساحة ، ماضياً حاقداً كريهاً ، ونستأنف وجوداً آمناً عزيزاً .

بعث النعمان عروة إلى زهير وعنترة ، فأخبرهما بما كان من النعمان وابن كسرى ، فقال زهير :

وماذا ترى فى هذا يا عنترة ؟

فقال عنترة :

ما كنت أريد أن أغمد سيفى ، حتى يريق دماء الأعداء ، ولكن النعمان أصبح منا بمصاهرته ، ومن العقوق أن نغفل رغبته ، ولا نستجيب له

وحضر زهير وعنترة فى جماعة من فرسانهما ، وشقوا جيش خداوند بين نظرات الهيبة والإعجاب ، فاستقبلهم خداوند استقبالا عزيزاً كريماً ، وقال :

لا عتب على ما فات ، وقد أحضرتكم لأهب لكم دم رجالى ، وتغفروا لى ما فرط منى ، وأتخذكم أولياء فى محنتى ، وإخواناً فى شدتى ، فقد جعلنى أبى ولى عهده ، ووارث ملكه من بعده ؛ وأنعم عليهم بالهدايا الفاخرة ، والمنح السنية ، فقال زهير :

نحن لكم ما دمنا فيكم أعزة .

وهكذا انحسر عن الأرض بفضل ما أبداه النعمان من حزم ولين ذلك الطوفان الدموى الذى غمرها أياماً ، ورد لنفسه وجوده الملكى السائد ، وجعل من زهير وعنترة له ولكسرى سلاماً وألفة ، وحمى وقوة ، ورد خداوند إلى الطريق المستقيم التى يأمن فيها الفناء ، ويخرج منها إلى العافية ، وكان ذلك الصلح لحناً تجاوبت به الألسنة ، وطربت له الأفئدة ، ثم التفت خداوند إلى عنترة واقبه بالسبع الأسود ، ورغب أن يصحب النعمان إلى الحيرة ، فوافق ذلك أمنية فى نفسه ، إذ كان ارتيابه

فى كسرى لا يزال يختلج فى صدره . ثم سعى النعمان فى فك رقبة أخيه الأسود من الأسر ، وإعتاق رقاب الأسرى من جيش خداوند ، وأصلح ما بين بنى عبس وعدنان ، وفزارة وغطفان ، وأشار على زهير أن يعود إلى قومه ، ويأخذ فى تجهيز ابنته ، كما أشار على حذيفة بن بدر سيد بنى فزارة ، أن يعود أيضاً إلى قومه ، ويأخذ فى تجهيز ابنته مارية ، التى كان قد خطبها إليه أخوه الأسود ، ثم عزم خداوند ومن معه على الرحيل . وكان الأسود بعد أن أعتقه بنو عبس ، قد حضر إلى أخيه ، فاعتذر إليه ، وقبل يديه .